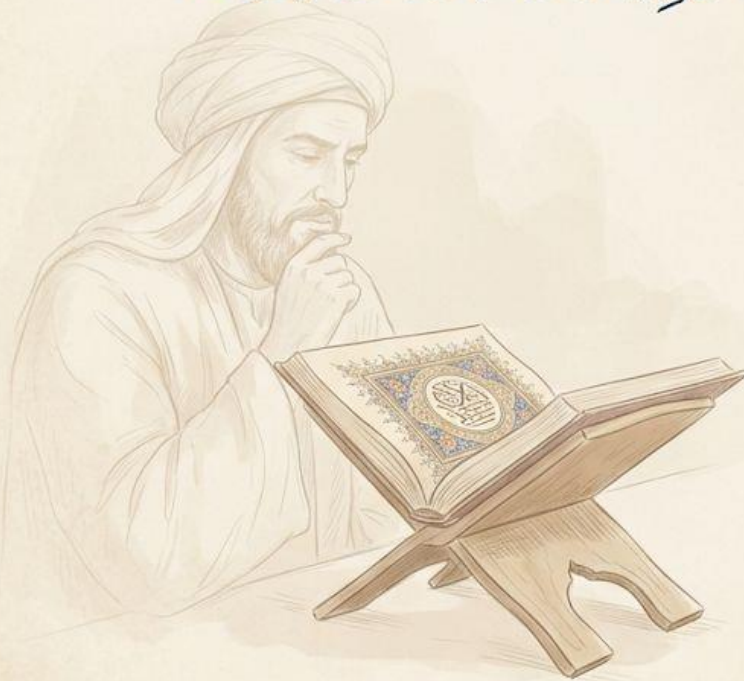


حِينَ يَعْتَرِفُ الذُّوقُ بِالْحَقِّ  
وَيَتَمَرَّدُ النَّفْسُ عَلَى التَّسْلِيمِ  
الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ مُؤَدِّجًا



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

# حين يعترف الذوق بالحق

وتتمرد النفس على التسليم

الوليد ابن المغيرة نموذجاً

رَدَّاد السَّلاَمِي

بسم الله الرحمن الرحيم

## الفكرة المركزية للكتاب:

ليست القصة أن الوليد بن المغيرة سمع القرآن فأعجب به فقط؛

بل القصة أعمق من ذلك:

أن القرآن قد يبلغ الإنسان من أوسع أبواب وعيه، من ذوقه وعقله

وحسه وذاكرته، ثم يقف الإنسان عند الباب الأخير: باب التسليم،

فيمنعه الكبر لا الجهل، والمكانة لا الشهية، والخوف على الذات لا

ضعف الدليل.

وهنا تصبح قصة الوليد ليست مجرد شاهد على إعجاز القرآن،

بل نموذجًا خالدًا لمأساة الإنسان حين يعرف ولا ينقاد.

## مدخل الكتاب:

قال الوليدُ ابنُ المُغيرة واصفاً القرآن الكريم:

«والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته».

إن القرآن لم يهزم ذوق الوليد، بل فضحه؛ لأنه كشف أن المشكلة ليست في البيان، بل في الاستكبار.

ليست مأساة الوليد أنه لم يفهم، بل أنه فهم بما يكفي ليدان. لم يكن جاهلاً حتى يُعذر بجهله، ولا غافلاً حتى يُستيقظ من غفلته؛ بل كان رجلاً بلغته الحجة من باب الذوق قبل أن تبلغه من باب البرهان، ثم أثر أن يحمي مكانته على أن ينجو بروحه.

هذا النص ليس مجرد قراءة في موقف تاريخي، بل هو كشفٌ عن واحدة من أعقد لحظات التماس بين الوحي والإنسان: لحظة لا يكون

فيها الحجاب عائداً إلى غموض الحق، بل إلى استعصاء النفس على الانقياد له.

فالعربي الجاهلي لم يكن يتلقى القرآن في فراغ بياني، ولا في بيئة خاملة الذوق، بل كان يسمعه في زمنٍ بلغت فيه الكلمة ذروة سلطانها الاجتماعي والنفسي. كانت اللغة عنده أكثر من وسيلة تعبير؛ كانت مجال المجد، وميدان السيادة، ومخزن الذاكرة، ومقياس الشرف. ولذلك كان اصطدامه بالقرآن اصطدام خبيرٍ لا اصطدام عاميٍّ؛ اصطدام من يعرف الشعر والسجع والخطابة والكهانة، ثم يجد أمامه كلاً لا يستقر في واحدٍ من هذه الأجناس، ولا يسمح للذوق أن يردّه إلى ههنا وفهنا تكتسب شهادة الوليد بن المغيرة خطرهما العميق. فهي لم تصدر عن قلبٍ سلّم، بل عن ذوقٍ انهزم. لم تكن شهادة محبٍّ يستكثر الجمال في محبوبه، بل شهادة خصمٍ أراد أن يجد منفذاً للطعن، فوجد نفسه محاصراً بسلطان البيان. والخصم حين يشهد، لا يشهد بما يحب، بل بما غلبه.

لقد أدرك الوليد أن القرآن لا ينافس الكلام من داخله، بل يعلو عليه من فوقه. ليس نصًّا داخل السوق البلاغية العربية، بل خطابٌ جاء ليعيد بناء المعيار نفسه.

ولذلك لم تكن عبارته: "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة" مجرد انفعال جمالي، بل اعترافًا بأن هذا الكلام يحمل حياةً من نوع آخر؛ حياةً تجعل أعلاه ثمرةً وأسفله مغدقًا، كأن المعنى فيه ليس سطحًا يُقرأ، بل شجرةٌ تمتد جذورها في الغيب وتخرج ثمرتها في القلب.

غير أن المأساة لم تكن في عجز الوليد عن الفهم، بل في عجزه عن الخضوع لما فهم. وهنا تظهر المسافة المخيفة بين وضوح الحق في الوعي، وانكسار النفس له. فقد يعرف الإنسان، ويشهد، ويتأثر، ثم يبقى محبوسًا في سلطانٍ قديم: سلطان الجاه، والكبر، والخوف من الناس، وهيبة المكانة، وعبادة الصورة التي صنعها لنفسه في أعين قومه. قال الوليد لم يُحجب عن القرآن لأنه لم يسمعه، بل لأنه سمعه أكثر مما ينبغي لرجلٍ يريد أن يبقى كما هو.

لقد وصل القرآن إلى ذائقته، وكشف له أن هذا الكلام ليس من معدن البشر، لكنه حين طرق باب القرار في داخله، وجد الأنا واقفة كالحارس الأخير بينه وبين النجاة.

ولذلك فقصته ليست شاهداً على إعجاز القرآن فحسب، بل شاهد على مأساة الإنسان حين يرى النور ثم يختار الظل؛ حين لا تكون المشكلة في نقص الدليل، بل في ثمن التسليم. فبعض الناس لا يمنعهم عن الحق أنهم لم يعرفوه، بل يمنعهم أنهم عرفوه في لحظةٍ كان الاعتراف به سيكسر شيئاً عزيزاً في صورتهم عن أنفسهم. وهنا تبلغ القصة ذروتها:

أن القرآن قد يهزم الذوق بجماله، ويهزم العقل ببرهانه، لكنه لا يُكره القلب على النجاة. فمن لم يخلع كبرياءه عند باب الحق، بقي خارجه ولو شهد له ألف مرة.

## الافتتاحية

ليست كل مأساة الإنسان في أنه لا يرى الحق؛ فكثيرًا ما يراه واضحًا، حاضرًا، قريبًا، حتى كأن بينه وبينه خطوة واحدة، ثم لا يخطو.

هناك لحظات يبلغ فيها الدليل غايته، وتبلغ الحجة تمامها، ويبلغ الجمال سلطانه، ثم تقف النفس على العتبة الأخيرة، لا لأنها لم تفهم، بل لأنها فهمت أكثر مما تحتمل.

في تلك اللحظة لا يعود السؤال: هل الحق واضح؟ بل يصير السؤال الأخطر: هل يملك الإنسان شجاعة الخضوع لما اتضح له؟

ومن هنا تكتسب قصة الوليد بن المغيرة معناها العميق. فهي ليست قصة رجلٍ سمع القرآن فأعجب به ثم كابر فحسب، بل قصة النفس حين يُفتح لها باب النور، فتدرك أنه نور، ثم تخاف أن تدخل؛ لأن الدخول إليه يقتضي موت صنمٍ قديم في داخلها: صنم الجاه، أو الكبير، أو المكانة، أو الصورة التي صنعتها لنفسها بين الناس.

لقد ذهب الوليد إلى القرآن وفي يده ميزان العرب، فعاد وقد انكسر  
الميزان في يده. ذهب ليحاكم النص، فعاد محكومًا بسلطانهِ. ذهب  
يبحث عن اسمٍ يضعه عليه: شعر، سحر، كهانة، خطابة؛ فإذا به  
يقف أمام كلامٍ لا يدخل في الأسماء التي يعرفها، ولا يقبل أن يكون  
فرعًا من شجرة البيان البشري.  
كانت تلك هي الصدمة الأولى: أن يسمع العربي كلامًا عربيًا، ثم  
يشعر أن العربية نفسها قد ارتفعت به إلى أفقٍ لم تبلغه من قبل.

## المقدمة

### حين لا تكون المشكلة في الدليل

ليست كلُّ مأساة الإنسان في أنه لا يرى الحق؛ فكثيراً ما يراه واضحاً، حاضراً، قريباً، كأن بينه وبينه خطوة واحدة، ثم لا يخطو. وقد تبلغ الحجة غايتها، ويبلغ البيان مداه، ويبلغ الجمال سلطانه، ثم تقف النفس على العتبة الأخيرة، لا لأنها لم تفهم، بل لأنها فهمت أكثر مما تحتمل. فالإنسان لا يهرب دائماً من الغموض، بل قد يهرب من الوضوح؛ لأن الوضوح حين يشتدّ لا يترك له مساحة يختبئ فيها، ولا عذراً يتدثر به، ولا منطقة رمادية يمدّ فيها بقاءه القديم. وهنا تبدأ المأساة.

حين لا يكون السؤال: هل الحق ظاهر؟

بل يصبح السؤال الأعمق والأخطر: هل تملك النفس شجاعة

الانحناء لما ظهر؟

فبين المعرفة والانقياد مسافة لا تقطعها العقول وحدها. قد يعرف الإنسان، ويشهد، ويتأثر، ويهتز، ثم يبقى في مكانه؛ لأن الإيمان ليس معلومة تُضاف إلى الذهن كما تُضاف مسألة إلى محفوظات الإنسان، بل هو تحوّل في مركز الوجود. الإيمان ليس أن يعترف العقل فقط، بل أن تنزل النفس عن عرشها، وأن يخلع الإنسان سلطانه القديم، وأن يقبل أن يكون الحق أكبر من صورته، وأعلى من جاهه، وأسبق من مصلحته، وأحقّ بالاتباع من كل ما ألفه الناس فيصفألها هكوتني نضقصبة الوليد بن المغيرة أهميتها:

ليست القصة، في جوهرها، قصة رجل من قريش سمع القرآن فأعجب به ثم كابر. هذه قراءة صحيحة، لكنها لا تبلغ عمق المشهد.

إنما القصة أوسع من ذلك: إنها نموذج للإنسان حين يُحاصر بالنور، فلا يجد في عقله ما يدفعه، ولا في ذوقه ما ينكره، ولا في خبرته ما يصنّفه، ثم يبحث في نفسه عن آخر ما يملك من أدوات المقاومة، فلا يجد إلا الكبر.

ذهب الوليد إلى القرآن وفي يده ميزان العرب؛ ميزان الفصاحة، والخبرة، والتمييز بين الشعر والخطابة والسجع والكهانة. لم يكن رجلاً غريباً عن الكلام، ولا عامياً يُؤخذ بكل لفظ جميل، ولا ساذجاً تُبهره العبارة لأول وهلة. كان من قوم جعلوا الكلمة ميداناً للمجد، وسوقاً للسيادة، ووعاءً للذاكرة، وميزاناً للرجولة والمكانة. كان يعرف كيف يُبنى الكلام، وكيف ينكسر، وكيف يرتفع، وكيف يتكلف، وكيف تجري فيه الصنعة البشرية وإن غطاها صاحبها بألثم قبيح القرآن.

وهنا وقع الاصطدام العظيم: لم يصطدم جاهلٌ بمعنى غامض، بل اصطدم خبيرٌ بكلامٍ لا يدخل في خبرته. سمع كلاماً عربياً، لكنه أحس أن العربية فيه ليست كما يعرفها. الكلمات مألوفة، والحروف مألوفة، واللسان لسانهم، ولكن النظم ليس من معدن ما ألفوا، والسلطان ليس سلطان شاعرٍ غلب خصومه، ولا خطيبٍ أحسن تصريح القول، ولا كاهنٍ لبس عبارته بالغموض والرنين. كان أمام

شيء آخر؛ كلامٍ يتكلم بلغتهم، ثم يرفع لغتهم فوق عاداتها، ويستعمل ألفاظهم، ثم يفتح بها أفقًا لا تملكه ألفاظ البشر حين ينطق بها البشر.

وهذه هي الدهشة الأولى في القرآن: أنه لم يأت غريبًا عن اللغة حتى يُقال إن غرابته من عجمته، ولم يأت داخلًا في مألوف البيان حتى يُقال إنه نوع من أنواعه. جاء عربيًا مبينًا، لكنه لم يكن فرعًا من شجرة الكلام العربي. جاء مفهومًا، لكنه غير قابل للتصنيف. جاء قريبًا من الأذن، بعيدًا عن القدرة. ولذلك كانت حيرة العرب أمامه حيرةً خطيرة؛ لأنهم لم يكونوا أمام كلام لا يفهمونه، بل أمام كلامهم، أعني بها يكفونهم ليعلموا أنه ليس مما يستطيعونه.

فقد يُعذر الإنسان إذا جهل، وقد يُمهّل إذا التبس عليه الطريق، وقد يتردد إذا اختلطت عليه الوجوه. أما أن يرى الفرق، وأن يلمس السلطان، وأن يشهد في داخله بانكسار مألوفه، ثم يختار المكابرة؛ فهذه ليست غفلة عابرة، بل مأساة نفسٍ آثرت أن تحمي صورتها على أن تنجو بحقيقتها.

لقد قال الوليد كلمته المشهورة في القرآن:

«والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر،

وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما

تحته».

هذه العبارة ليست مجاملة. وليست انفعالاً عابراً. وليست كلمة

خرجت من رجل محبّ يريد أن يجمّل محبوبه. إنها شهادة خصمٍ

مأخوذ. والخصم حين يشهد لخصمه، لا ينطق بما يحب، بل بما

غلبه. لا يمدحه لأنه يريد له العلو، بل لأنه لم يجد في نفسه قدرة على

إنكار علوّه.

وهنا تكمن خطورة هذه الشهادة: أنها لم تصدر من مؤمنٍ مستسلم

يتذوق القرآن من داخل المحبة، بل من رجل جاء وفي نفسه مقاومة،

وفي مقامه الاجتماعي حرج، وفي محيطه ضغط، وفي كبريائه

مانع. ومع ذلك نطقت ذائقته بما عجزت إرادته عن اتباعه.

قال: إن له لحلاوة.

ولم يكن يقصد حلاوة اللفظ وحدها، فكم من كلامٍ حلوٍ يخلو من

السلطان، وكم من عبارة عذبة لا تفعل في النفس إلا فعل الزينة العارضة. إنما كان يصف أثرًا أعمق: انجذابًا لا يملك السامع دفعه، ووقعًا لا يقف عند ظاهر الصوت، بل يدخل إلى منطقة الحكم الداخلي في النفس، حيث يعرف الإنسان أن هذا الكلام ليس عاديًا، وأنه لا يستطيع أن يعامله كما يعامل سائر الكلام. وقال: وإن عليه لطلاوة.

والطلاوة ليست المعنى وحده، ولا اللفظ وحده، بل ذلك الهاء الذي يكسو الكلام حين يكون حيًا من داخله. هناك كلام صحيح لكنه بارد، وكلام مزخرف لكنه فارغ، وكلام قوي لكنه خشن، أما القرآن فكان يجمع من السلطان ما يُخضع، ومن الجمال ما يجذب، ومن الصفاء ما يكشف، ومن الهيبة ما يمنع السامع أن يتعامل معه تعاملًا عاديًا، وإن أسفله لمغدق.

وهذه من أعجب عباراته؛ لأنه لم يصف القرآن كتركيب جامد، بل وصفه ككائن حيٍّ، كشجرة غيبية لها علوٌّ وثمر، ولها أصل وماء. كأن المعنى فيه لا يُستنفد من جهة، ولا يجفّ من جهة أخرى. كلما

ارتفعت في النظر وجدت ثمرًا، وكلما نزلت إلى الأصل وجدت

غدقًا. ليس سطحًا بل طبقات، وليس زخرفة بل حياة، وليس رصفًا

للألفاظ بل بناء ممتدّ من الجذر إلى الثمرة.

ثم قال الكلمة الفاصلة: **وإنه ليعلو وما يُعلى عليه.**

هنا لم يعد الأمر مجرد إعجاب. هذه شهادة تفوق. بل ليست شهادة

تفوق تنافسي، كأن القرآن دخل سوق البلاغة فغلب الشعراء

والخطباء فحسب؛ بل شهادة تفوق معياري. معنى ذلك أنه لا يعلو

داخل المعيار القديم، بل يعلو على المعيار نفسه. لا ينتصر في ساحة

البيان كما ينتصر شاعر على شاعر، بل يجعل الساحة كلها أصغر

من أن تحتويه. **ومن هنا قال: ويحطم ما تحته؛ لا لأنه عنيف في لفظه، ولا لأنه**

يهدم الكلام هدمًا حسيًا، بل لأنه إذا حضر انكشف ما سواه على قدره

الحقيقي. الأشياء الضعيفة لا تحتاج دائمًا إلى من يكسرها؛ يكفي أن

يحضر ما هو أعلى منها حتى تظهر هشاشتها.

وهكذا فعل القرآن في الذائقة العربية: لم يكتفِ بأن يكون نصًّا

بليغًا، بل كشف حدود البلاغة البشرية حين تقف أمام كلام الله.

لكن المأساة أن الوليد لم ينتقل من الشهادة إلى التسليم.

وهنا يجب أن نتوقف طويلاً.

فليست كل معرفة تُنقذ أصحابها. وليست كل دهشة تفتح باب

الهداية. وليس كل من شهد للجمال تبع الحق. قد يبلغ الإنسان من

الإدراك ما يسقط عذره، لا ما يفتح قلبه. وقد يرى من النور ما يكفي

لفضح ظلامه، لا ما يكفي لخروجه منه، إن لم يشأ هو أن يخرج.

إن الحق حين يدخل إلى العقل يطلب تصديقًا، وحين يدخل إلى

القلب يطلب خضوعًا، وحين يدخل إلى الحياة يطلب تغييرًا. وكثير

من الناس لا يمانعون التصديق ما دام فكرةً ساكنة، ولا يعادون

الإعجاب ما دام تجربةً جمالية، ولا يخافون الاعتراف الداخلي ما

دام حبيس السريرة. لكنهم يرتجفون حين يصبح الحق موقفًا، وحين

تتحول المعرفة إلى تبعة، وحين يقول لهم النور: الآن غير موقعك.

وهنا يتبيّن أن مشكلة الإنسان مع الحق ليست دائماً في الدليل، بل في الثمن.

قد يقول الإنسان: أريد الحقيقة. لكنه في العمق يريد حقيقة لا تكسر كبريائه، ولا تهدد مكانته، ولا تجرحه أمام قومه، ولا تطالبه أن يعترف بأنه كان على خطأ، ولا تنتزع منه الامتياز الذي عاش طويلاً تحت ظله. فإذا جاءه الحق رقيقاً لا يكلفه شيئاً قبله، وإذا جاءه عظيمًا يطالبه بالتحول خاصمه. وهذه هي محنة الوليد.

لم تكن محنته أنه لم يسمع. لقد سمع. ولم تكن أنه لم يفهم. لقد فهم من سلطان القرآن ما لم يستطع إنكاره. ولم تكن أنه لم يتأثر. لقد نطقت عبارته بأثرٍ واضح. لكن المحنة أنه لم يملك شجاعة العبور من الإدراك إلى الانقياد. وهذا الفرق دقيق وعظيم.

الإدراك قد يكون لحظةً يفرضها سلطان الحق على العقل أو الذوق. أما الانقياد فهو قرارٌ تتخذه النفس حين تقبل أن تنزل من عليائها.

الإدراك يقول: هذا حق. أما الانقياد فيقول: وأنا له. الإدراك يشهد، والانقياد يسجد. الإدراك قد ينتزع من الخصم اعترافاً، أما الانقياد فلا يكون إلا من قلبٍ رضي أن يُقاد.

ومن هنا ليست قصة الوليد مجرد شاهد على إعجاز القرآن، بل هي مرآة للإنسان كله. ذلك أن في كل نفسٍ موضعاً قد يرى الحق ثم يساومه، وقد يعرف النور ثم يؤجّل الدخول فيه، وقد يسمع النداء ثم يشتغل بتحليل صوته بدل إجابة دعوته. وكم من إنسان لا ينقصه الدليل، بل تنقصه الطهارة الداخلية التي تجعله قابلاً للدليل. وكم من إنسان يهزم في المناظرة ولا يسلم، ويفحم بالحجة ولا يرجع، ويرى الآية ثم العجوليين اسجدوا قبل النور، الكبرياتي حقيقة حجاب معرفي وروحي. إنه يجعل الإنسان لا يرى الأشياء كما هي، بل كما تسمح له صورته عن نفسه أن يراها. فإذا جاء الحق من جهة لا

يحبها، أو على يد من يستصغره، أو بما يهدد مركزه، لم يعد يسأل:  
هل هذا حق؟ بل يسأل في الخفاء: ماذا سيحدث لي إن اعترفت بأنه  
حق؟

هنا تنقلب المعركة.

لا يعود القرآن أمامه نصًّا يُتدبَّر، بل خطرًا على سلطان النفس.  
ولا تعود الهداية نورًا، بل تهديدًا لبناء قديم من الجاه والعادة  
والمكانة. وهذا ما يجعل بعض الناس لا يقاومون الحق لأنه ضعيف،  
بل لأنهم أحسّوا أنه قوي بما يكفي ليغيّرهم. إنهم لا يرفضونه لأنه لم  
يقنعهم، بل لأنه أقنعهم في منطقة لا يريدون أن يصل إليها.  
وهذا هو الفرق بين طالب الحقيقة وطالب الغلبة.

طالب الحقيقة يفرح إذا ظهر له الحق ولو على يد خصمه؛ لأنه  
كان يطلب الحق لا ذاته. أما طالب الغلبة فيحزن إذا بان الحق في  
غير صفه؛ لأنه كان يطلب الانتصار لا الهداية. الأول إذا انكشف له  
النور تبعه، والثاني إذا انكشف له النور بحث عن ستار جديد. ولهذا  
قد تكون المعرفة نفسها نعمة على قلب متواضع، ونقمة على قلبٍ

مستكبر؛ لأنها في الأول تصوير طريقًا إلى الله، وفي الثاني تصوير حجةً عليه.

ولعل من أخطر ما تكشفه قصة الوليد أن الذوق وحده لا يكفي.

فالذوق قد يدلّك على الجمال، لكنه لا يمنحك بالضرورة شجاعة اتباعه. قد تكون صاحب حسّ مرهف، وبصرٍ نافذ، وقدرة عالية على تمييز الكلام الرفيع من الكلام الساقط، ثم تبقى عاجزًا عن الانقياد لما عرفت. فالإنسان لا ينجو برهافة ذوقه وحدها، ولا بذكاء عقله وحده، ولا بسعة ثقافته وحدها؛ ينجو حين يكون في داخله صدقٌ يسمح للحق أن يتجاوز منطقة الإعجاب إلى منطقة التحويل. وهذه مسألة ينبغي أن نخاف منها.

لأننا قد نظن أن الخطر على الإنسان أن يكون بعيدًا عن القرآن، بينما الخطر الأعظم أن يكون قريبًا منه قريبًا لا يغيّره. أن يسمعه، ويعرف فضله، ويتأثر بجماله، وربما يكتب عنه ويشرح آياته ويشهد بإعجازه، ثم يبقى في موضعٍ من حياته لا يسمح لهذا القرآن أن يحكمه. ليست المسافة دائمًا بين الكفر والإيمان بمعناهما الظاهر

فقط؛ هناك مسافات داخل النفس بين الاعتراف والطاعة، بين الإعجاب والاتباع، بين أن تقول: ما أعظم هذا النور، وبين أن تسمح له أن يكشف عمتك أنت.

ومن هنا يصبح الوليد أكثر من شخص تاريخي. يصبح رمزاً لكل لحظة يعرف فيها الإنسان ولا يتبع. لكل موقف يتضح فيه الحق ثم يتراجع صاحبه خوفاً من الناس. لكل قلبٍ شعر بنداء الله ثم قال: ليس الآن. لكل عقلٍ أدرك صدق الطريق ثم آثر راحة العادة. لكل نفسٍ شهدت للنور ثم اختارت الظل؛ لا لأنها تجهل أن النور نور، بل لأنها لا تريد أن تخسر ما ألفته في الظلام. إن ما شاة العارف الذي لا يلبع أشد من مأساة الجاهل الذي لم يعرف؛ لأن الجاهل قد ينتظر من يفتح له الباب، أما العارف فقد فُتح له الباب ثم أعرض. الجاهل مشكلته في غياب الطريق، أما العارف المكابر فمشكلته أنه رأى الطريق ثم آثر أن يبقى حيث هو. ولذلك يكون العلم على بعض النفوس ثقيلاً؛ لأنه لا يزيدنا قرباً، بل يزيدنا انكشافاً.

وهذا الكتيّب ليس محاولة لإدانة رجلٍ مضى في التاريخ وانتهى أمره، بقدر ما هو محاولة لقراءة المشهد بوصفه قانوناً من قوانين النفس الإنسانية أمام الوحي.

فالقرآن لا يكشف العالم فقط، بل يكشف الإنسان لنفسه. لا يعرفنا بالله وحده، بل يعرفنا بحقيقة مواقفنا من الله. لا يسألنا: هل فهمتم؟ فحسب؛ بل يسألنا: ماذا فعلتم بما فهمتم؟ لا يكتفي بأن يضيء الطريق، بل يفضح أيضاً مَنْ رأى الطريق ثم تظاهر بأنه لا يراه.

ومن هنا سنقرأ قصة الوليد لا كحكاية منفصلة، بل كباب لفهم العلاقة بين القرآن والإنسان: كيف ينزل الوحي على ذائقة حيّة، فيعرف أهل البيان أنه ليس من جنس بيانهم؟ كيف يشهد الخصم بما غلبه؟ كيف يتحول الجمال إلى حجة؟ كيف يفشل الإنسان لا عند باب الفهم، بل عند باب الخضوع؟ وكيف يصبح الكبر حجاباً لا يمنع

وصول النور إلى العقل، لكنه يمنع دخوله إلى القلب؟  
إنها قصة القرآن حين يعلو على الكلام.

وقصة الإنسان حين يصغر أمام الحق ثم يرفض أن يعترف بصغره.

وقصة الذائقة حين تشهد.

وقصة النفس حين تكابر.

وقصة النور حين يبلغ الباب، ثم يقف الإنسان خلف الباب ممسكًا

بظله القديم.

ولعلنا، ونحن نقرأ هذه القصة، لا نريد فقط أن نرى الوليد هناك،

في مجلس من مجالس قريش، مأخوذًا بسلطان القرآن، حائرًا في

تصنيفه، محاصرًا بما سمع. بل نريد أن نسأل أنفسنا: أين يتكرر هذا

المشهد فينا؟ أين نسمع الحق ثم نؤجله؟ أين نعرف ثم نساوم؟ أين

نقول في سرائرنا: هذا حق، ثم لا نملك شجاعة أن نصير من أهله؟  
فالقصة لا تنتهي بوفاة صاحبها. بعض القصص لا تموت لأنها

ليست مجرد أحداث، بل نماذج. والوليد، بهذا المعنى، ليس شخصًا

مضى فقط؛ إنه احتمالٌ داخل الإنسان حين يقف أمام الوحي بلا

تواضع. احتمال أن يرى، ثم لا يتبع. أن يشهد، ثم لا يسلم. أن يقول:

إنه يعلو وما يُعلَى عليه، ثم يظل هو في سفح نفسه، أسيرًا لكبرٍ منعه

أن يصعد.

والقرآن لا يزال يعلو.

لا لأنه يحتاج إلى شهادة الوليد، ولا إلى اعتراف خصم، ولا إلى تصديق ذائقة بشرية؛ بل لأنه كلام الله، يحمل سلطانه في ذاته. لكن شهادة الخصم تكشف شيئاً آخر: تكشف أن المكابر قد يُهزم من الداخل قبل أن يجادل من الخارج، وأن المعركة مع الحق كثيراً ما تُحسم في السرية قبل أن تظهر على اللسان.  
ومن هنا يبدأ هذا الكتيب:

من تلك اللحظة التي سمع فيها العربي الخبير كلاماً يعرف ألفاظه ولا يعرف مصدر سلطانه.  
ومن تلك الشهادة التي خرجت من فم الخصم كأنها اعتراف اضطراري لا يملك دفعه.

ومن تلك المفارقة الكبرى: أن الإنسان قد يشهد للوحي بالجلال، ثم يمنعه كبره أن يدخل في رجمته.  
فليست المشكلة دائماً أن الدليل ناقص.

أحياناً تكون المشكلة أن النفس ممتلئة بما يمنعها من قبول الدليل.

وليس المأساة دائماً أن الإنسان لا يرى النور.

أحياناً يراه، ويعرف أنه نور، ثم يختار أن يبقى في الظل.

وقد ورد في بعض كتب السيرة أن النبي ﷺ لما أنزلت عليه سورة

غافر قرأها في المسجد، فسمعها الوليد ثم انطلق إلى مجلس بني

مخزوم وقال كلمته في القرآن، كما نقل ذلك الصالح في سبل

الهدى والرشاد عن طرق عن ابن عباس. وهناك روايات أخرى

تذكر آية من سورة النحل في سياق مقولة الوليد، وبعض أهل العلم

ينهمون إلى تعدد الروايات أو اختلافها؛ لذلك سنصوغها أدبياً

وتاريخياً بعبارة دقيقة مثل: "وفيما ترويهِ بعض أخبار السيرة..."

لا بصيغة الجزم المطلق في كل المواضع.

## الفصل الأول

### العربي الأول وسلامة الذائقة

#### حين كان السماع حدثًا لا عادة

لم يكن العربي الأول يسمع القرآن كما نسمعه نحن غالبًا؛ لم يكن بينه وبين الآية تاريخٌ طويل من الاعتياد، ولا طبقات متراكمة من التلاوة المألوفة، ولا قوالب مدرسية سابقة تُسرّع إلى ذهنه قبل أن يترك للكلمة أن تصدمه.

كان يسمعها وهي تولد في فضاء الجزيرة أول مرة.

وكان هذا وحده كافيًا لأن يجعل السماع حدثًا، لا عادة؛ مواجهةً، لا مروّزًا؛ انكشافًا، لا ترديدًا مألوفًا.

فالكلمة عند العربي لم تكن مجرد وسيلة، بل كانت موطنًا من مواطن السيادة. بالشعر تُرفع القبيلة، وبالهجاء تُهدم، وبالخطبة تُستثار الحمية، وبالسجع والكهانة يُصنع الغموض، وبالبيان تُدار المعارك قبل أن تُدار بالسيوف.

كان العربي يعيش في أمة جعلت اللسان سلاحًا، ومجدًا، ونسبًا،  
ومرآةً للروح.

ولذلك لم يكن القرآن حين نزل فيهم نازلًا على قومٍ بليدي الحس،  
ولا على ألسنةٍ ميتة، ولا على آذانٍ لا تعرف مراتب الكلام. بل نزل  
في أمةٍ بلغت من سلطان الكلمة مبلغًا جعلها قادرةً على أن تعرف،  
من اللحظة الأولى، أن هذا الذي تسمعه ليس امتدادًا طبيعيًا لما  
تعرف، ولا صورةً أفصح من صور كلامها فحسب، بل أمرٌ آخر.  
كان القرآن عربيًا، نعم.

ولكنه لم يكن عاديًا داخل العربية.

كان مفهومًا، نعم.

ولكنه لم يكن قابلاً للإحاطة.

كان قريبًا من الأذن، نعم.

ولكنه كان بعيدًا عن القدرة.  
وهنا سرُّ الصدمة.

فالغربة لو جاءت من العجمة لكان الأمر يسيراً؛ إذ يستطيع العربي أن يقول: هذا كلام لا أعرف لسانه. ولو جاءت من غموضٍ مصطنع لقال: هذا سجع كهان. ولو جاءت من وزنٍ منتظم لقال: هذا شعر. ولو جاءت من حكمةٍ بشرية عالية لقال: هذا قول حكيم أو خطيب. لكن القرآن جاء من داخل اللغة، ثم تجاوز كل ما عرفته اللغة من طرائق البشر.

ومن هنا كانت شهادة العربي الأول للقرآن شهادةً شديدة الخطر؛ لأنه لم يشهد لشيءٍ خارج اختصاصه، بل شهد في أخص ما يملك: في الذوق، واللسان، والخبرة، وتمييز الأجناس الكلامية.

لقد سمع الوليد بن المغيرة — فيما ترويهِ بعض أخبار السيرة — رسول الله ﷺ يقرأ من صدر سورة غافر:

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾

[غافر: 1-3]

## تأمل افتتاح السورة.

لا تبدأ بمقدمة بشرية، ولا باسترضاء السامع، ولا بتدرج خطابي يطلب الإذن من الأذن أن تسمع. تبدأ بهذا الحضور الجليل: ﴿حم﴾

حرفان مقطّعان، يخرجان السامع من مألوف الكلام، لا لأنهما بلا معنى، بل لأنهما يضعانه منذ اللحظة الأولى أمام سرٍّ لا يملك أن يستنفده. كأن القرآن يقول للعربي: هذه حروفك التي تعرفها، وهذا هو اللسان الذي تتقنه، فانظر كيف تُؤخذ الحروف التي في يدك، ثم يُبنى منها ما ليس في قدرتك.

ثم تأتي الجملة التالية: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

وهنا لا يقدّم القرآن نفسه بوصفه كلامًا يبحث عن اعتراف الناس،

بل بوصفه تنزيلًا.

والكلمة وحدها تهدم تصورات كثيرة؛ فالقرآن ليس صاعدًا من

عبقريّة بشرية، ولا مولودًا من ثقافة قوم، ولا تركيبًا صنعه شاعر

في عزلته، بل هو نازلٌ من علوّ. ومن هنا كان أثره في النفس أثر الشيء الذي لا يأتيك من مستواك، بل يهبط عليك من فوقك.

ثم تأمل اجتماع الاسمين: ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

العزة والعلم.

كأن الكلام منذ بدايته يحمل صفتين من صفات مصدره: قوة لا تُغلب، وعلماً لا يخفى عليه شيء. فهو ليس خطاباً جميلاً فقط، بل خطابٌ صادر من عزةٍ تعلم، ومن علمٍ يعزّز، ومن سلطانٍ لا يساوم السامع على الحقيقة.

ثم تأتي الآية الثالثة كأنها بحر من التوازن الجليل: ﴿غَافِرِ الدَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾

هنا يسمع العربي تراكيب لا تشبه خطابة البشر.

رحمةٌ لا تلغي الهيبة.

وهيبةٌ لا تطمس الرحمة.

مغفرة، وقبول توبة، وشدة عقاب، وسعة فضل.

إنه ليس إلهًا تصنعه العاطفة البشرية على صورة اللين المطلق،  
ولا إلهًا تصنعه المخاوف الوثنية على صورة القسوة المحضّة؛ بل  
ربُّ كامل، تجتمع في خطابه الرحمة والعدل، والقرب والجلال،  
والفتح والإنذار.

ثم تختتم الآية بهذا الحسم: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

وهذه ليست جملة عقديّة مجردة، بل إعلانٌ يهزّ الوجود كله.

فإذا كان هو وحده الإله، فكل سلطانٍ سواه محدود.

وإذا كان إليه المصير، فكل مهربٍ منه وهم.

وإذا كان الكلام تنزيلاً منه، فليس السامع أمام نصٍّ يتذوقه ثم

يمضي، بل أمام خطابٍ يستدعي منه موقفًا.  
هنا نستطيع أن نفهم شيئًا من اضطراب الوليد.

لم يكن يسمع جمالًا لغويًا فقط، بل كان يسمع كلامًا يزاحمه في

مركزه الداخلي. القرآن لم يقل له: أعجب بي. بل قال له: اخضع

للحق الذي أحمله. وهذه هي اللحظة التي يصير فيها الجمال

امتحانًا، لا متعةً فقط.

فلو كان القرآن مجرد بيانٍ رفيع، لانتهى أثره عند الإعجاب.  
ولو كان مجرد بلاغةٍ عالية، لقال الوليد: ما أجمل هذا الكلام.  
لكن القرآن كان يحمل في داخله سلطاناً آخر؛ سلطاناً لا يترك السامع  
في موقع المتفرج.

ولهذا لم يقل الوليد بعد سماعه: هذا كلام حسن فقط.

بل قال ما يشبه الاعتراف بانكسار المعيار:

إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله  
لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلَى عليه.

كأن صدر سورة غافر لم يصل إلى أذنه فحسب، بل وصل إلى  
ميزانه.

وكأن الآيات لم تمرّ على ذوقه، بل دخلت إلى الموضع الذي كان  
يزن به الكلام كله، ثم أعادت ترتيب الموازين.

وهنا نصل إلى المعنى الذي نريد أن نبني عليه الفصل كله:

العربي الأول لم تكن ميزته أنه كان أصفى إيماناً، بل أنه كان  
أصفى استقبالاً.

قد لا يكون قلبه مسلمًا، لكن أذنه لم تكن ميتة.

وقد لا يكون قد تجرّد من كبره، لكن ذائقته لم تكن قد فقدت

حساسيتها.

وقد يرفض في النهاية أن ينقاد، لكنه لا يستطيع أن يزعم أن ما

سمعه كلام عادي.

وهذا يفسر لماذا كان القرآن، في بداياته، يثير فيهم ذلك

الاضطراب العجيب:

يسمعونه فيخافون منه، ويجتمعون للتحذير منه، ثم يتسللون إلى

سماعه.

يرفضونه في العلن، ثم تشدهم آياته في الخفاء.

يتهمونه بالسحر، لا لأنهم وجدوه باطلاً، بل لأنهم وجدوا له أثرًا لا

يعرفون له <sup>اسمًا</sup> "سحرًا" في خطابهم لم تكن دائمًا حكمًا معرفيًا دقيقًا، بل

كانت أحيانًا اسمًا مرتبًا للأثر الذي لم يستطيعوا تفسيره. كانوا

يقولون: سحر، لأن القرآن يفعل في النفوس ما لا يفعله الشعر، ويمتد

في القلوب حيث لا تمتد الخطابة، ويأخذ السامع من نفسه قبل أن يأخذه من قومه.

والأعجب أن القرآن نفسه كان يكشف هذه الحيرة، ويعرضها لا بوصفها قوةً في خصومه، بل بوصفها علامة على اضطرابهم أمام الحق:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾

## [المدثر: 24-25]

تأمل التناقض المستتر هنا.

هم يريدون أن يجعلوه من قول البشر، لكنهم لا يستطيعون أن يعاملوه كأبي قول بشري. يريدون أن يسقطوه إلى الأرض، لكنهم يحتاجون إلى تهمة "السحر" لأن أثره فيهم لم يكن أرضيًا في شعورهم. ولو كان عندهم مجرد كلام بشر، لما احتاجوا إلى هذه التعبئة كلها ضده. إن الاتهام نفسه كان شاهدًا معكوسًا.

فحين يقول الخصم عن القرآن إنه سحر، فهو في العمق يعترف  
أن له سلطاناً غير مألوف. وحين يقول إنه قول البشر، فهو يحاول  
أن يردّه إلى التصنيف الذي يريحه. لكنه لا ينجح؛ لأن القرآن يظلّ  
يفلت من الأسماء التي يريدون حبسه فيها.  
ومن هنا كانت سلامة الذائقة عند العربي الأول باباً من أبواب  
الإلزام عليه.

فهو لم يكن يستطيع أن يقول: لم أفهم.  
ولم يكن يستطيع أن يقول: لم أذق.  
ولم يكن يستطيع أن يقول: هذا من جنس ما نعرف.  
لقد عرفوا الشعر، فلم يكن شعراً.  
وعرفوا السجع، فلم يكن سجع كهان.  
وعرفوا الخطب، فلم يكن خطبة.  
وعرفوا الحكمة، فلم يكن حكمة بشرية مرسلّة.  
وعرفوا الأساطير، فلم يكن أسطورة.

كان القرآن يأخذ من كل مألوفٍ أحسن ما يظنونه فيه، ثم يتجاوزه.

فيه إيقاع، لكنه ليس وزنًا شعريًا.

وفيه فاصلة، لكنها ليست سجعًا متكلفًا.

وفيه حجاج، لكنه ليس جدلاً باردًا.

وفيه قصص، لكنها ليست تسلية.

وفيه وعد ووعد، لكنهما ليسا انفعال خطيبٍ يطلب التصفيق.

وفيه جمال، لكنه جمالٌ يأمر وينهى، ويهدي ويحاكم، ويعطي  
وهنا ندرك أن القرآن لم يدخل إلى العرب من باب الزينة اللغوية،  
ويأخذ.

بل من باب السلطان.

لقد جاءهم بلسانهم، لكنه لم يأتِ تابعًا لذائقهم.

خاطبهم بما يفهمون، ثم رفعهم إلى ما لم يكونوا يعرفون.

استعمل حروفهم، ثم أعجز قدرتهم.

دخل من أذن العربي، لكنه لم يقف عند الأذن؛ بل مضى إلى

القلب، وإلى الوعي، وإلى موضع القرار.

ولهذا كان سماع القرآن عندهم خطرًا.

نعم، خطرًا.

لأنهم كانوا يدركون أن من يسمعه بصدق لا يبقى كما كان. وأن الكلمة إذا خرجت من فم محمد ﷺ لم تكن مجرد لفظٍ يعبر الهواء، بل كانت حدثًا يغيّر موقع الإنسان من نفسه، ومن قومه، ومن آلهته، ومن مصيره.

وهذا هو الفرق بين سماعنا وسماعهم.

نحن قد نسمع الآية أحيانًا وقد غطاها الاعتياد.

أما هم فكانوا يسمعونها وهي تشقّ لأول مرة هواء مكة.

نحن قد تصلنا الآية بعد أن مرّت على أذهان كثيرة وكتب كثيرة وشروح كثيرة.

أما هم فكانت تصلهم مباشرةً، حارةً بحرارة التنزيل، كأنها تنزل على اللحظة نفسها.

ولذلك كان العربي الأول إذا سمع: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ

الْعَلِيمِ﴾

لم يسمع معلومة عن مصدر القرآن فقط، بل سمع إعلاناً بأن السماء دخلت في كلام الأرض، وأن اللسان الذي كانوا يتفاخرون به صار الآن حاملاً لما هو فوق طاقتهم.

وهذه وحدها كافية لأن تهزّ أمةً جعلت مجدها في البيان.

على بركة الله يا صديقي.

أنتقل الآن إلى تتمة الفصل الأول، بعد المقطع الذي انتهينا فيه إلى

أن القرآن دخل إلى العرب من باب لسانهم، لكنه لم يكن تابعاً

لذائقهم، بل جاء ليعيد بناء الذائقة نفسها.

## العربي الأول وسلامة الذائقة

### حين كان السماع خطرًا

لم يكن خوف قريش من القرآن خوفًا من فكرةٍ مجرّدة، ولا من دعوةٍ أخلاقية عابرة، ولا من رجلٍ يقترح على قومه إصلاحًا اجتماعيًا يمكن احتواؤه أو مساومته. كان خوفهم أعمق من ذلك؛ كانوا يشعرون أن هذا الكلام إذا ترك يلامس الأذان، وصل إلى موضعٍ في الإنسان لا تملكه الزعامة، ولا تضبطه القبيلة، ولا تقهره العادة<sup>1</sup> لم تكن معركتهم الأولى مع القرآن معركة تفسير، بل معركة سماع.

فالقرآن قبل أن يكون موضوعًا للنقاش عندهم، كان حدثًا سمعيًا مزلزلاً. كانوا يعرفون أن الخطر يبدأ من الأذن؛ لأن الأذن إذا صدقت في استقبالها، قد تجرّ وراءها القلب، وإذا اضطرب القلب، تهاوت بعده أصنام كثيرة: أصنام الحجارة، وأصنام المكانة، وأصنام الآباء، وأصنام النفس.

ومن هنا نفهم هذا القول القرآني الفاضح لطريقة مقاومتهم: ﴿وَقَالَ

الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾

## [فصلت: 26]

هذه الآية تكشف الاستراتيجية كلها.

لم يقولوا: اسمعوه ثم ناقشوه.

ولم يقولوا: تدبروه ثم ردوا عليه.

ولم يقولوا: قابلوا حجته بحجة.

بل قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾

لأن السماع نفسه صار خطرًا.

كانهم أدركوا أن القرآن لا يحتاج دائمًا إلى وسيطٍ طويل بينه وبين

الفطرة، وأنه إذا دخل إلى الإنسان من باب السماع الصافي، أحدث

فيه شرحًا في البنية القديمة التي كان يعيش بها. فهم لم يخافوا من

المؤمن الذي يشرح القرآن فقط، بل خافوا من القرآن حين يُسمع

مجردًا، عاريًا من ضجيجهم، حاضرًا بسلطانه الخاص.

ثم لم يكتفوا بمنع السماع، بل أضافوا: ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾

وهنا دقة عجيبة.

فاللغو ليس حجة.

اللغو ليس ردًا.

اللغو ليس برهانًا.

اللغو ضجيجٌ يُصنع ليمنع المعنى من الوصول.

كأن قريشًا فهمت أن أفضل طريقة لمقاومة القرآن ليست أن تقابله بكلامٍ مثله؛ لأنها عاجزة عن ذلك، بل أن تملأ الفضاء حوله بالضوضاء، حتى لا يبقى للقلب صفاؤه، ولا للأذن قدرتها على الإنصات، ولا للمعنى طريقه إلى الداخل.

وهذه الآية وحدها تكشف أن العرب لم يتعاملوا مع القرآن بوصفه نصًا عاديًا. النص العادي لا يُمنع الناس من سماعه، ولا يحتاج خصومه إلى صناعة الضجيج حوله. النص العادي يُترك ليبرد وحده. أما القرآن فقد كان يملك من الحرارة الداخلية ما جعلهم يخافون من مجرد وصوله.

وهنا تظهر عظمة التعبير: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

أي إن الغلبة، في تصورهم، لا تأتي من قوة الحجة، بل من تعطيل السماع.

لا تأتي من مواجهة النور، بل من إغلاق النوافذ.

لا تأتي من هدم المعنى، بل من منع المعنى أن يستقر. وهذه شهادة قرآنية عظيمة على أثر القرآن فيهم: أن خصومه لم يبدأوا برده، بل بدأوا بمنع الناس من الإصغاء إليه.

لأنهم كانوا يعرفون أن بين القرآن وبين النفس البشرية طريقًا لا يمرّ كله عبر سلطانهم. كانوا يملكون السوق، والجاه، والعصبية، والتهديد، والضغط الاجتماعي، لكنهم لم يكونوا يملكون تلك اللحظة الخفية حين يسمع الإنسان الآية وحده، فتقع في داخله كما تقع القطرة

الأولى على أرض عطشى. وفي هذا المعنى تتضح لنا قيمة السماع الأول.

فالسماع الأول ليس مجرد استقبال صوتي، بل هو لحظة لقاء بين الوحي والفطرة قبل أن تتدخل شبكات الدفاع النفسي والاجتماعي.

الإنسان في أول السماع يكون أحياناً أصدق مما يكون بعد الجدل؛ لأن الجدل قد يستدعي كبرياءه، ومكانته، وخوفه من الناس، ورغبته في الانتصار، أما السماع الصافي فيفاجئه قبل أن يرتب دفاعه.

ولهذا كان القرآن يخترقهم أحياناً في لحظات الخلوة أكثر مما يخترقهم في المجالس. في المجلس يحضر القوم، وتحضر المكانة، ويحضر الخوف من أن يقال: تأثر فلان، أو لأن قلب فلان، أو مالت نفس فلان إلى محمد.

أما في الخلوة، فليس بين الإنسان وبين ما سمع إلا قلبه؛ وهنا يكون الامتحان أصعب، لأن الإنسان يفقد جمهوره الذي يتقوى به على الحقيقة.

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا كانت قريش تخشى من القرآن وهو يُتلى. لم يكن القرآن كتاباً صامتاً في رِقٍّ أو صحيفة، بل كان يتجلى أولاً في التلاوة؛ في الصوت النبوي الذي يحمل المعنى، وفي الإيقاع الذي لا يشبه أوزان الشعر، وفي الفواصل التي ليست سجع كهان، وفي الجلال الذي لا يطلب التصفيق، بل يطلب الخضوع.

كانوا يسمعون مثل قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا

وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: 1-4]

تأمل هذه البداية.

مرة أخرى تأتي الحروف المقطعة: ﴿حَم﴾

الحروف التي يعرفها العربي، لكنها تفاجئه بأن معرفته بالحرف

لا تعني قدرته على الإتيان بالنظم. وهذا من ألطف وجوه الإعجاز:

أن المادة بين أيديهم، لكن القدرة ليست لهم. كأن القرآن يقول لهم:

هذا البناء من الحروف التي تتكلمون بها، فهاتوا مثله إن كان الأمر

أمر مادة فقط.

ثم: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

لاحظ الفرق الشعوري بين قوله في غافر: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

وقوله هنا: ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

هناك يواجه السامع بعزة العلم وجلال السلطان، وهنا يفتح له باب الرحمة. لكن الرحمة هنا ليست لينًا بلا أمر، ولا عاطفة بلا تكليف؛ إنها رحمة تنزل في صورة كتاب، أي في صورة هداية، وبيان، وميزان، وأمرٍ ونهي. فالرحمة الإلهية ليست أن يُترك الإنسان لما

يحب، بل أن يُنقذ مما يضره ولو خالف هواه. ثم يقول: ﴿كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ﴾

والتفصيل هنا له وقع عجيب.

فالقُرآن ليس كتلة غامضة تُلقى على السامع بلا بيان، بل آيات مفصلة، واضحات، كل آية في موضعها، كل مقطع يؤدي وظيفته، كل معنى يأتي بقدره. وهذا التفصيل يقطع عذر من يزعم أن الإشكال في غموض الرسالة. ليست المشكلة أن البيان لم يبلغ، بل

أن السامع أعرضَ الجملة التي تعيدنا إلى موضوع الفصل: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

هنا ليست العربية مجرد وصفٍ لغوي، بل إلزام تاريخي ومعرفي.

فالقُرآن نزل بلسانهم، في ميدان تفوقهم، أمام ذائقتهم، بين أسماعهم، بحيث لا يستطيعون أن يعتذروا بأن اللسان غريب، ولا أن يتخفّوا وراء عجز الفهم. هو قرآن عربي، لكن لا ليكون تابعًا لعبقريتهم، بل ليقيم الحجة عليهم في أخصّ ما يتقنون.

وهنا تبلغ المفارقة ذروتها: ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهْمٌ لَا يُسْمَعُونَ﴾

مع أنه قرآن عربي لقوم يعلمون، إلا أن أكثرهم لا يسمعون.

فما معنى أنهم لا يسمعون مع أنهم يسمعون الصوت؟

المعنى أنهم لا يسمعون سماع قبول.

لا يسمعون سماع من يريد الحق.

لا يسمعون سماع من فتح قلبه للمعنى.

هناك فرق بين أذنٍ يصلها الصوت، وقلبٍ يستقبل الخطاب. وقد

يكون الإنسان حاضر السمع غائب الاستجابة. يسمع الآية من حيث

الأصوات، لكنه يمنعها من أن تتحول إلى سلطان داخلي. وهذه صورة دقيقة جدًا من صور المكابرة: أن يعطل الإنسان وظيفة السمع لا بإغلاق الأذن، بل بإغلاق النية.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن سلامة الذائقة وحدها كانت تجعل العربي قادرًا على أن يعرف فرادة القرآن، لكنها لا تجعله بالضرورة قابلاً للهداية. فالذائقة تكشف الجمال، أما الهداية فتحتاج إلى تواضع. واللسان يعرف طبقات البيان، أما القلب فهو الذي

يختار: هل ينحني للحق أم يجعل معرفته به حجة عليه؟ وهذا ما يجعل موقف الوليد شديد الدلالة.

إنه سمع، وذاق، وميَّز، وشهد، لكنه لم يسجد.

وهذه المسافة بين الشهادة والسجود هي موضع المأساة كله.

لقد كانت ذائقته سليمة بما يكفي لتعرف أن القرآن ليس من كلام البشر، لكن نفسه لم تكن سليمة بما يكفي لتتبع ما عرفت. كان جهازه البياني يعمل بكفاءة مذهلة، أما جهاز التسليم في داخله فكان محجوبًا

بالكبر. وكأن القرآن وصل إلى أذنه، ثم إلى ذوقه، ثم إلى عقله، فلما وصل إلى باب القلب وجد عليه حارسًا غليظًا اسمه: الأنا.

وهنا يصبح الفصل الأول ليس مدحًا للعربي الجاهلي بإطلاق، ولا تصويرًا له كأنه كان أظهر منا، بل وضعًا للأمور في مواضعها: كان العربي الأول أقدر من كثيرٍ منا على التقاط الصدمة البيانية الأولى، لكنه لم يكن أقدر بالضرورة على النجاة. فقد تصفو الأداة ويظلم المقصد. وقد تكون الأذن حساسة، والقلب قاسيًا. وقد يكون اللسان في أعلى درجات الإدراك، والنفس في أدنى درجات التواضع. كان القرآن يواجههم من جهتين:

من جهة البيان، فيعجزهم.

ومن جهة التوحيد، فيطالهم.

ولو كان القرآن بيانًا فقط، لربما اكتفوا بالإعجاب به.

ولو كان دعوة مجردة بلا سلطان بياني، لزعموا أنها قولٌ عادي.

لكنه جمع الأمرين: أعجزهم بجماله، ثم طالهم بحقه.

أخذ عليهم طريق الذوق، ثم لم يسمح لهم أن يقفوا عند الذوق.

جعل الجمال بابًا إلى الخضوع، لا بديلاً عنه.

وهذه من أعظم حقائق القرآن.

إنه لا يريد من الإنسان أن يكون متذوقًا فقط.

ولا يريد منه أن يكون معجبًا فقط.

ولا يريد منه أن يقول: ما أجمل هذا النص، ثم يعود إلى حياته كما

كانت.

القرآن حين يُسمع حقًا يطلب من السامع أن يتغير.

ولذلك كان سماعه خطرًا على من يريد البقاء كما هو.

خطرًا على الوثني الذي لا يريد أن يفارق آلهة قومه.

وخطرًا على المتكبر الذي لا يريد أن ينزل عن علوه.

وخطرًا على صاحب الجاه الذي يخشى أن يصبح تابعًا بعد أن كان

متبوعًا.

وخطرًا على الإنسان عمومًا، حين يحب الحقيقة ما دامت لا تمسّ

امتيازاته.

ولعل هذا هو السر في أن قريشاً لم تكتفِ بالقول: لا تؤمنوا به،

بل قالت: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾

لأن بين السماع والإيمان طريقاً يخافونه.

ولأن القرآن إذا سُمع في صفائه الأول قد يوقظ في الإنسان ما

حاولت القبيلة أن تنيمه طويلاً.

ولأن الفطرة، حين تسمع كلام ربها، قد تتذكر أصلها ولو بعد حين.

ومن عجيب الأمر أن القرآن لم يخفِ هذه المعركة حول السماع،

بل فضحها، وسجلها، وأبقاها في كتابٍ يُتلى إلى يوم القيامة؛ كأنها

ليست حادثة ماضية فقط، بل قانون يتكرر: كلما عجز الإنسان عن

مواجهة الحق، حاول أن يمنع نفسه أو غيره من سماعه.

وما أكثر صور هذا في كل زمن.

قد لا يقول الإنسان اليوم: لا تسمعوا لهذا القرآن، ولكنه يفعل

ذلك بطريقة أخرى.

قد يملأ قلبه بالضجيج حتى لا يسمع.

وقد يملأ وقته بالتشتت حتى لا يخلو بالآية.

وقد يكتفي بسماعٍ سريعٍ عابر حتى لا يسمح للمعنى أن يستقر.

وقد يحوّل القرآن إلى صوتٍ مألوفٍ في الخلفية، لا إلى خطابٍ

حاضر في المركز.

وقد يقرأه بعين الباحث عن المعلومة، لا بقلب الطالب للنجاة.

وهنا يصبح السؤال موجّهًا إلينا نحن أيضًا:

هل نسمع القرآن فعلاً؟

أم أننا نسمع صوته ونؤجل خطابه؟

هل نمرّ على الآيات، أم نتركها تمرّ علينا؟

هل نقرأ القرآن كما يقرأ العارفون خطاب ربهم، أم كما يقرأ

المعتادون نصًا يعرفون بداياته ونهاياته؟

إن العربي الأول، مع جاهليته، كان يمتلك دهشة البداية.

ونحن، مع إيماننا، قد نفقد أحيانًا تلك الدهشة تحت غبار الاعتياد.

وهذه مفارقة موجعة.

فقد يكون الكافر الأول أصدق اضطرابًا أمام القرآن من مسلمٍ  
اعتاد سماعه حتى لم يعد يهتز. ليس معنى ذلك أنه خيرٌ منه، ولا أنه  
أقرب إلى النجاة، بل المعنى أن الاعتياد قد يحجب المؤمن عن بعض  
ما كان يراه الخصم من سلطان القرآن. فالقضية ليست في الإيمان  
النظري وحده، بل في حياة الاستقبال.  
أن يبقى القرآن جديدًا في قلبك كلما سمعته.

أن لا تتحول الآية إلى صوت مألوف بلا نداء.

أن لا تقرأ الوحي وكأنك تعرفه حتى لم تعد تحتاج أن ينكشف لك  
من جديد.

فالقرآن لا يبلى، لكن القلوب قد تبلى.

والآية لا تفقد نورها، لكن العين قد تضعف.

والوحي لا يصير عاديًا، لكن الإنسان قد يعتاد النور حتى لا يعود

يشعر بفداحة الظلام.

وهنا نعود إلى الوليد.

لقد كان سمعه الأول كاشفًا.

سمع القرآن قبل أن تصنع حوله الحواجز.

سمعه في قوة ظهوره الأولى، حين لم يكن بعدُ مألوفًا في أسماع

الناس، ولا محاطًا بما نحيطه نحن به من تصنيفات وعلوم

وفهارس ومدارس.

سمعه كما يسمع العربي الخبير كلامًا جاء يتحدّى خبرته كلها.  
فاهتز.

لكن الاهتزاز ليس هداية كاملة.

قد تهتز النفس أمام الحق، ثم تعود إلى قسوتها.

وقد تدمع العين، ثم تبقى الإرادة كما هي.

وقد يعترف الذوق، ثم يخون القرار.

وقد يقول الإنسان عن القرآن ما لا يستطيع إنكاره، ثم يعيش كأنه

لم يقل شيئًا.

ومن هنا نحتاج أن نقرأ شهادة الوليد لا بوصفها نهاية المشهد،

بل بدايته.

فالشهادة تكشف أن القرآن بلغ موضع الإدراك.

أما ما بعدها فيكشف أن الإدراك وحده لا يكفي.

وسيكون علينا في الفصل القادم أن ننظر في طبيعة هذا القرآن

الذي أربك التصنيفات: لماذا لم يستطع العرب أن يجعلوه شعراً؟

ولماذا لم يستقر في خانة السجع؟ ولماذا كانت كل التهم التي

ألصقوها به علامات عجزٍ أكثر منها علامات فهم؟

فما وقع للوليد لم يكن حادثة ذوقية منفصلة.

إنه جزء من صدمة كبرى عاشها اللسان العربي كله حين وجد نفسه

أمام كلامٍ منه، لكنه فوقه؛ بلغته، لكنه ليس من طاقته؛ مفهوماً في

ألفاظه، لا يُدرك مداه في سلطانه.

وهنا يبدأ السؤال التالي: أيُّ كلامٍ هذا الذي جعل أهل الكلام

عاجزين عن تسميته؟

## الفصل الثاني

### القرآن خارج الأجناس الكلامية

#### حين عجزت الأسماء عن احتواء الوحي

لم تكن حيرة العرب أمام القرآن حيرة من يسمع كلامًا غريبًا لا يفهمه، بل حيرة من يسمع كلامًا يفهم ألفاظه، ثم لا يجد له موضعًا في خارطة البيان التي يعرفها. وهذه حيرة أخطر.

فالإنسان إذا عجز عن فهم الكلام، ردّ عجزه إلى غرابة اللغة، أو غموض المعنى، أو بُعد البيئة، أو اختلاف اللسان. أما إذا فهم الكلام، وذاقه، وعرف وجوهه، ثم لم يستطع أن يصنفه، فذلك يعني أنه أمام شيء لا يقع تحت سلطانه المعرفي. أمام نصٍّ لا يمنحه راحة التسمية. والتسمية سلطان.

حين يسمّي الإنسان الشيء، يشعر أنه أحاط به؛ أدخله في معجمه، وضعه في خانة، ربطه بما يعرف، ثم اطمأن. ولذلك كان أول ما حاولته قريش مع القرآن أن تبحث له عن اسمٍ يريّحها منه. لم تكن المشكلة فقط أن ترفضه، بل أن تعرف كيف ترفضه. فالرفض يحتاج إلى عنوان. والخصومة تحتاج إلى تهمة. والناس لا يُصرفون عن شيءٍ حتى يُعطى لهم اسمٌ يخيفهم منه أو يهوّنه في أعينهم. فقالوا: شعراً.

لكن القرآن لم يستقم لهم شعراً.

وقالوا: كهانة.

لكن القرآن لم يشبه سجع الكهان.

وقالوا: سحر.

لكن السحر لا يملك هذا الصفاء، ولا هذا التوحيد، ولا هذا البناء،

ولا هذا النور الذي يوقظ العقل وهو يأخذ بمجامع القلب.

وقالوا: أساطير الأولين.

لكن الأسطورة تُغرق الإنسان في خيال الماضي، أما القرآن فكان ينتزع الإنسان من غفلته، ويضعه وجهًا لوجه أمام ربه ومصيره ومسؤوليته.

وقالوا: قول بشر.

لكنهم كانوا يعلمون في داخلهم أن قول البشر لا يفعل هذا الفعل، ولا يأتي بهذا السلطان، ولا يحطم المعايير هكذا.

ومن هنا كانت تهمهم متناقضة؛ لا لأنها مجرد افتراء خارجي، بل لأنها تعبّر عن اضطراب داخلي. كلما حاولوا أن يثبتوا القرآن في خانة، أفلت منها. وكلما ألقوا عليه اسمًا، كسره. وكلما أرادوا إنزاله إلى مستوى الكلام الذي يعرفون، ارتفع فوق أيديهم.

لقد كانوا كمن يحاول أن يقيس البحر بكفّه، فإذا امتلأت الكفّ قال: هذا هو البحر. ثم إذا نظر رأى البحر ممتدًا وراء كفّه، لا ينقصه ما أخذ، ولا يحده ما ظن.

وقد سجّل القرآن عليهم هذه الحيرة؛ لا ليحكي مجرد خصومة تاريخية، بل ليكشف طبيعة العجز الذي وقعوا فيه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ

### ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: 41-43]

هذه الآيات لا تنفي مجرد تهمة، بل تهدم التصنيفين الكبيرين اللذين كانا يملكان رهبة الكلام في المخيال العربي: الشاعر والكاهن.

الشاعر عند العرب ليس صاحب وزنٍ وقافية فحسب؛ إنه لسان القبيلة، ومصدر مجدها، وحامل هجائها وفخرها، وصوتها حين تريد أن تبقى في الذاكرة. والكاهن ليس مجرد رجلٍ يتكلم بكلامٍ غامض؛ إنه عندهم صوت الأسرار الملتبسة، والاتصال المزعوم بما وراء المرئي، وصاحب العبارة التي تُربك السامع بإيقاعها وغموضها. فإذا نفى القرآن عن نفسه أن يكون قول شاعر أو كاهن، فهو لا ينفي عنه مجرد شكلين أدبيين، بل ينفي عنه أن يكون تابعًا لأعلى

سلطتين كلاميتين عرفتهما العرب: سلطة الجمال الشعري، وسلطة الغموض الكهاني.

ثم يأتي الحسم: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

كأن الآيات تقول: إنكم لن تفهموا القرآن ما دتم تبحثون له عن أصلٍ في الأرض. إن سرّه ليس في نوعٍ أدبيٍّ مفقود، ولا في عبقرية بشرية مدهشة، ولا في صناعة لغوية متقدمة؛ سرّه أنه تنزيل. وكل تصنيف يغفل هذه الحقيقة سيظل عاجزاً عن تفسير سلطانه. وهنا تظهر القضية الكبرى:

القرآن لا يرفض أن يكون شعراً لأنه أقل من الشعر، بل لأنه أعلى من أن يُحبس في نوعٍ بشري.

ولا يرفض أن يكون كهانة لأنه أوضح منها فحسب، بل لأنه حقٌّ لا يلبس ثوب الغموض ليصنع الهيبة.

ولا يرفض أن يكون قول بشر لأنه أجمل من أقوال البشر فقط، بل لأنه يحمل مصدراً غير بشري في منطقته وسلطانه ومآله.

## ليس شعراً... لأنه أوسع من الانفعال

لقد كان الشعر ذروة البيان عند العرب، وموضع فخرهم، وديوان أيامهم، وذاكرة قبائلهم. وكان العربي يستطيع أن يتذوق الوزن كما يتذوق الفارس وقع الحافر على الأرض، يعرف متى يستقيم البيت، ومتى ينكسر، ومتى تأتي القافية متمكنة أو متكلفة، ومتى يكون القول مطبوعاً أو مصنوعاً.

فلما سمعوا القرآن، وجدوا فيه إيقاعاً، لكنهم لم يجدوا وزن الشعر. وجدوا فيه فواصل تهزّ السمع، لكنها ليست قوافي مقصودة لذاتها. وجدوا فيه صوراً ومشاهد، لكنها لا تخضع لخيال شاعر يريد أن يفتن السامع. وجدوا فيه موسيقى، لكنها موسيقى المعنى حين يتجلى،

لا موسيقى البحر حين يفرض نظامه على العبارة. ولهذا جاء النفي القرآني واضحاً: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي

لَهُ ۚ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 69]

تأمل قوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾

ليست المسألة أنه ﷺ لم يقل الشعر فقط، بل أن مقام الرسالة لا يناسبه الشعر بوصفه المصدر الذي يريد الخصوم ردّ القرآن إليه. فالقرآن ليس انفعال شاعر، ولا تدفق وجدان بشري، ولا تجربة ذاتية تبحث عن صياغتها. إنه ذكر وقرآن مبين. والفرق عظيم.

الشعر — مهما علا — يبقى محكوماً بمزاج قائله، وتجربته، وانفعاله، وحدود رؤيته. قد يبلغ الجمال، لكنه لا يملك سلطان التشريع. قد يوقظ العاطفة، لكنه لا يبني ميزاناً للوجود كله. قد يصف الموت، لكنه لا يحاكم الإنسان بعد الموت. قد يذكر الإله، لكنه لا يتكلم بسلطان الإله. أما القرآن فيتحدث من موضع آخر.

حين يقول الشاعر: رأيتُ، وأحسستُ، وبكيتُ، واشتقتُ، وغضبتُ؛ فهو يكشف عن نفسه ولو تكلم عن الكون. أما القرآن حين يتكلم عن الإنسان والكون والموت والبعث والجنة والنار والتاريخ

والسنن والقلوب، فإنه لا يكشف عن تجربة نفسية لقائله، بل يكشف

عن حقيقة الأشياء كما هي في علم الله.

ومن هنا كان القرآن أوسع من الشعر.

الشعر يحرك الوجدان.

أما القرآن فيحاكم الوجدان.

الشعر يرفع اللحظة.

أما القرآن فيربط اللحظة بالمصير.

الشعر قد يجعلك تقول: ما أجمل هذا القول.

أما القرآن فيجعلك تقول: أين أنا من هذا الحق؟

وهذا هو الفرق الذي أربكهم.

لو كان القرآن شعراً، لوجدوا له وزناً، ولقابلوه بشعرٍ مثله،

ولردّوا عليه في سوق البيان كما يرد الشعراء بعضهم على بعض.

لكنهم أحسوا أن القرآن لا يقف معهم في الساحة نفسها. إنه لا يطلب

إعجابهم الجمالي فقط، بل يطالبهم بالإيمان. لا يريد أن يُعَلَّقَ في  
الذاكرة كبيتٍ بليغ، بل أن ينزل على القلب كأمرٍ ونورٍ وفرقان.  
ولذلك كان اتهامه بالشعر محاولةً لتخفيف خطره.

لأنك حين تقول عن الوحي إنه شعر، فقد جعلته تجربة بشرية  
قابلة للإعجاب والردّ، قابلة للحفظ والنسيان، قابلة لأن ينافسها شاعر  
آخر. أما إذا قلت إنه تنزيل، فقد دخلت في منطقة أخرى: منطقة  
المسؤولية أمام الله.

ومن هنا نفهم قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾

### [الطور: 30]

كأنهم يقولون: دعوه، فهذه موجة شاعر، وستنتهي بموته.

لكن القرآن لم يكن معلقًا بحياة شاعر حتى يموت بموته؛ لأنه لم  
يخرج من نفس محمد ﷺ، بل نزل عليه من ربه. ولذلك بقي بعد  
انتقاله ﷺ، وبقي بعد موت خصومه، وبقي بعد اندثار الأسواق التي  
خافوا أن يهزّها، وبقي يعلو وما يُعلَى عليه.

## وليس كهانة... لأنه أوضح من الغموض

ثم حاولوا أن يردّوه إلى الكهانة.

والكهانة عند العرب كانت تلبس ثوب الإيقاع الغامض. عبارات

قصيرة، مسجوعة، ملتبسة، توهم بالسرّ أكثر مما تكشف الحقيقة.

كانت الكهانة تعتمد على المسافة بين العبارة والمعنى؛ كلما اشتد

الغموض ظنّ السامع أن وراءه علماً خفياً.

أما القرآن فشيء آخر.

فيه غيب، نعم، لكنه ليس غموضاً متكلفاً.

وفيه هيبة، نعم، لكنها ليست هيبة الإبهام.

وفيه أسرار، نعم، لكنها أسرار العمق، لا أسرار التلبس.

القرآن لا يصنع سلطانه من إخفاء المعنى، بل من كشفه. لا يربك

السامع لأنه لا يفهم، بل يهزه لأنه فهم أكثر مما يريد. لا يغطي

الحقيقة بضباب الكهانة، بل يرفع عنها الغطاء حتى يصير الإنسان

عارياً أمام نفسه.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۖ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:

42]

فالكاهن يتكلم من منطقة الالتباس، أما القرآن فيتكلم من منطقة البيان. الكاهن يستمد هيئته من أن السامع لا يدري ماذا يريد، أما القرآن فترتجف له النفس لأنها تدري ماذا يريد منها. وهذه نقطة فارقة.

أحيانًا يكون الغموض مهربًا للسامع؛ لأنه يسمح له أن يعجب دون أن يلتزم، وأن يفسر الكلام كما يشاء، وأن يبقى حرًا من التبعية. أما الوضوح القرآني فلا يمنح الإنسان هذا الترف. حين يقول القرآن:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: 3]

فالمعنى لا يحتاج إلى كاهن يفسره، لكنه يحتاج إلى قلب يطبق نتيجته.

هذه الجملة وحدها كافية لهدم عالم كامل:

إذا كان لا إله إلا هو، فالأصنام باطلة.

وإذا كان إليه المصير، فالإنسان مسؤول.

وإذا كان هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، فلا أحد

يستطيع أن يعيش خارج ميزان الرجاء والخوف.

فهل هذه كهانة؟

الكهانة تقول كلامًا يتركك في الحيرة.

والقرآن يقول كلامًا يخرجك من الحيرة، لكنه يدخلك في

المسؤولية.

ولهذا كان نفي الكهانة عن القرآن نفيًا لطريقة كاملة في إنتاج

الهيبة. القرآن لا يحتاج أن يتخفى وراء الغموض ليعظم نفسه؛

عظمته في وضوحه. ولا يحتاج إلى إرباك العقل؛ لأنه يخاطبه. ولا

يحتاج إلى إلغاء الفطرة؛ لأنه يوقظها.

وليس سحرًا... لأن السحر يأخذ منك وعيك، والقرآن يردده إليك

أما قولهم: سحر، فهو من أعجب التهم.

لأنهم حين قالوا عن القرآن إنه سحر، كانوا يعترفون من حيث لا

يشعرون بأن له أثرًا. هم لم يستطيعوا أن يقولوا: كلامٌ لا قيمة له؛

لأنهم رأوا قيمته في اضطرابهم منه. ولم يستطيعوا أن يقولوا: لا  
يؤثر؛ لأنهم كانوا يرون الناس يتغيرون بسماعه. فاختاروا كلمة  
"السحر" لتفسير الأثر دون الاعتراف بالمصدر.

لكن الفرق بين السحر والقرآن كالفرق بين الظلمة والنور.

السحر يأخذ من الإنسان وعيه.

أما القرآن فيردّ الإنسان إلى وعيه.

السحر يخدع العين.

والقرآن يفتح البصيرة.

السحر يعلق الإنسان بوهم.

والقرآن يخرجهم من الوهم.

السحر يملك أثرًا بلا حق.

والقرآن يملك أثره لأنه حق.

ولهذا حين نقل القرآن قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ ٢٤ إِنَّ هَذَا

إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ [المدثر: 24-25]

كشف التناقض في موقفهم.

فإن كان سحرًا، فكيف يكون مجرد قول البشر؟

وإن كان قول البشر، فلماذا كل هذا الخوف منه؟

وإن كان عاديًا، فلماذا تحتاجون إلى التحذير منه؟

وإن كان باطلًا، فلماذا لا تتركونه يسقط وحده؟

لقد كانوا يشعرون أن القرآن يفعل في النفوس فعلًا لا يملكون

تفسيره، لكنهم لم يريدوا أن يسمّوه باسمه الحقيقي: هداية. فسمّوه

سحرًا.

وهذه عادة المكابرين: إذا عجزوا عن ردّ الحق، غيّروا اسمه.

يسمّون النور سحرًا.

ويسمّون الوحي شعرًا.

ويسمّون البيان كهانة.

ويسمّون الهداية فتنة.

لا لأن الأسماء صحيحة، بل لأن الاسم الكاذب يمنح النفس فرصة

أخيرة للهروب من مقتضى الاسم الحق.

## القرآن حين يعري التهمة من داخلها

ولم يكتفِ القرآن بنفي هذه التهم، بل واجههم بالتحدي.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 34]

هذه الآية شديدة الحسم.

لم يقل لهم: فليؤمنوا فوراً.

بل قال: إن كنتم تزعمون أنه من جنس كلام البشر، فالباب مفتوح.

إن كان شعراً فهاتوا شعراً مثله.

وإن كان كهانة فهاتوا كهانة مثله.

وإن كان قول بشر فهاتوا من قول البشر ما يقف في مستواه.  
لكن التحدي ظل قائماً.

والعجيب أن القرآن تحداهم في ميدانهم؛ لم يتحدهم في صناعة لا

يعرفونها، ولا في علم لم يبلغوه، ولا في لغة أجنبية عنهم. تحداهم

في أخص ما كانوا يفاخرون به: البيان.

ثم وسّع التحدي حتى صار كونيًا: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ  
عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ  
لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]

تأمل سعة الآية.

ليست المسألة شاعرًا أمام شاعر، ولا خطيبًا أمام خطيب، ولا  
قبيلة أمام قبيلة. بل الإنس والجن جميعًا، لو اجتمعوا وتظاهروا  
وتعاونوا، لما أتوا بمثله.

والسبب أن القرآن ليس تركيبًا يمكن استنساخه إذا اجتمعت  
العقول، بل تنزيلٌ يحمل من مصدره ما لا تخلقه القدرة البشرية.  
يستطيع البشر أن يقلدوا الشكل في مواضع، وأن يصنعوا إيقاعًا،  
وأن يركبوا عبارات، وأن يزخرفوا معاني، لكنهم لا يستطيعون أن  
يأتوا بكلامٍ يجمع ما جمعه القرآن: البيان، والهداية، والتشريع،  
والغيب، والنفس، والتاريخ، والعبادة، والتوحيد، والسلطان،  
والجمال، والخلود، والتأثير الذي لا ينقضي.

كلام البشر، مهما علا، يبقى ابن لحظته.

أما القرآن فيخاطب اللحظة كلها من فوقها.

كلام البشر يتقدم ثم يشيخ.

أما القرآن فيبقى جديداً؛ لا لأننا نعيد طباعته، بل لأنه يملك في

داخله قدرةً على مخاطبة الإنسان حيثما كان.

كلام البشر يلمع في سياق ثم يبهت خارجه.

أما القرآن فيخرج من مكة إلى المدينة، ومن الصحراء إلى المدن،

ومن القرن الأول إلى آخر الزمان، ولا يفقد سلطانه.

وهذا مما يجعل وصف الوليد دقيقاً على غير قصد منه: إنه يعلو

وما يُعلى عليه.

لم يقل: إنه جميل فقط.

بل قال: يعلو.

والعلو هنا ليس علو العبارة وحدها، بل علو المصدر، وعلو

السلطان، وعلو الأثر، وعلو المعيار. إنه يعلو لأن كل محاولة

لإنزاله إلى خانية بشرية تنتهي إلى فضح صاحبها لا إلى حبس القرآن.

### حين يصير العجز معرفة

إن عجز العرب عن تسمية القرآن لم يكن نقصاً معرفياً عابراً؛  
كان معرفةً من نوع آخر.

فأحياناً يبلغ الإنسان الحقيقة لا لأنه وجد اسمًا لها، بل لأنه عجز  
عن اختزالها في الأسماء المتاحة. وحين يعجز الخبير عن  
التصنيف، فذلك بحد ذاته شهادة. ليس كل عجز جهلاً؛ بعض العجز  
إدراكٌ بأن الشيء أكبر من أدواتك.  
وهذا ما وقع للعرب.

لو كان القرآن دون الشعر، لعرفوا موضعه.

ولو كان مثل الشعر، لنافسوه.

ولو كان أعلى قليلاً من الشعر، لقالوا: شاعر فاق الشعراء.

لكنهم وجدوه فوق الخانة كلها.

ولو كان كهانة، لعرفوا غموضها.

ولو كان خطابة، لعرفوا أساليها.

ولو كان أسطورة، لعرفوا مادتها.

ولو كان حكمة بشرية، لعرفوا مذاقها.

لكنه كان شيئاً آخر.

ومن هنا اضطربت التهم؛ لأن التهمة لم تكن وصفاً للقرآن، بل

وصفاً لعجزهم أمامه. كل اسم أطلقوه عليه لم يكن يفسره، بل كان

يكشف عن خوفهم منه. وكل تصنيف أرادوا حبسه فيه كان يرتدّ

عليهم؛ لأن القرآن لا يضيق حين يسمونه زوراً، بل تضيق أسماؤهم

حين تقترب منه.

وهكذا يصبح السؤال:

لماذا لم يؤمنوا إذًا؟

والجواب هو ما قلناه في المقدمة، وما سنظل نعود إليه:

لأن وضوح الحق لا يكفي وحده إذا كانت النفس لا تريد أن تدفع ثمنه.

قد يثبت القرآن أنه ليس شعراً، ولا كهانة، ولا سحراً.

وقد يثبت لهم أنه تنزيل.

وقد تنطق ذائقتهم بذلك.

لكن بعد ذلك تأتي المرحلة الأصعب: أن يعترف الإنسان بأن هذا

التنزيل يطلبه بتغيير حياته.  
وهنا لا تعود المعركة بلاغية فقط.

تصير معركة وجودية.

فالقرآن إذا كان شعراً، فأقصى ما يطلبه منك أن تعجب.

وإذا كان كهانة، فأقصى ما يطلبه منك أن تتحير.

وإذا كان سحراً، فأقصى ما يطلبه منك أن تحذر.

أما إذا كان تنزيلاً من رب العالمين، فهو يطلب منك أن تؤمن، وأن

تخضع، وأن تعيد ترتيب نفسك والعالم من حولك على ضوء هذا

الإيمان.

ولهذا كانت التهم وسيلة هروب من التبعة.

كانوا لا يريدون للقرآن أن يكون تنزيلاً؛ لأن كلمة تنزيل لا

تترك الإنسان كما كان.

إذا كان تنزيلاً، فهناك مُنزل.

وإذا كان هناك مُنزل، فهناك أمر ونهي.

وإذا كان هناك أمر ونهي، فهناك طاعة ومعصية.

وإذا كانت هناك طاعة ومعصية، فهناك حساب.

وإذا كان هناك حساب، فكل جاهٍ لا ينفع، وكل نسبٍ لا يحيي، وكل

كبرٍ ~~وهناك~~ <sup>وهناك</sup> ~~نفس~~ <sup>نفس</sup> ~~عربق~~ <sup>عربق</sup> ~~الرفض~~ <sup>الرفض</sup>.

لم يكن رفضاً لكلام جميل.

بل رفضاً لعالمٍ كامل يريد هذا الكلام أن يهدمه ويقيم عالماً غيره.

## البيان الذي لا يكتفي بأن يكون بياناً

أعظم ما في القرآن أنه لا يقف عند حدود الإعجاز البياني، مع أن  
بيانه معجز. ولو وقفنا عند جمال ألفاظه وحدها، لظلمناه من حيث  
نظن أننا نمدحه.

فالقرآن ليس كتاب بلاغة فقط.

ولا نصّاً جمالياً فقط.

ولا معجزة لغوية فقط.

إنه كلام الله إلى الإنسان.

ومن ثم فإن جماله ليس منفصلاً عن هدايته.

وبيانه ليس منفصلاً عن سلطانه.

وايقاعه ليس منفصلاً عن أمره ونهيه.

وقصصه ليست منفصلة عن سننه.

ومواعظه ليست منفصلة عن مصيره.

كل شيء فيه يعمل في اتجاه واحد: أن يعيد الإنسان إلى الله.

ولذلك لم يكن أثره في العرب أثر الدهشة الأدبية وحدها. كانت

الدهشة بداية، لكنها لم تكن النهاية. كانوا يشعرون أن هذا الكلام إذا

قُبِلَ، فلن يبقى الشعر في موضعه القديم، ولا الكهانة في هيبتها

القديمة، ولا الأصنام في مكانها القديم، ولا السادة في سلطانهم

القديم، ولا القبيلة في مركزها القديم، ولا الإنسان في وهمه القديم.  
القرآن لم يأت ليضيف نصًّا عظيمًا إلى مكتبة العرب.

بل جاء ليغيّر معنى العظمة نفسها.

لم يأت ليكون أفضل كلامهم.

بل جاء ليقول لهم: إن الكلام إذا كان من عند الله صار ميزانًا

لكلامكم وحياتكم ومصيركم.

وهذا ما جعل المواجهة معه حادة.

فالعرب لم يكونوا أمام شاعر جديد يمكن أن يصفقوا له أو يهجو

شاعر آخر. كانوا أمام وحي يطالبهم أن يكسروا أصنامهم، ويتركوا

موروثهم الباطل، وينزعوا القداسة عن الآباء إذا خالفوا الحق،

ويجعلوا التقوى لا النسب ميزان الكرامة، ويقولوا بأن المصير إلى الله لا إلى مفاخر القبيلة.

أي كلام هذا؟

أي نصي يستطيع أن يدخل إلى أمةٍ شديدة الاعتداد بلسانها ونسبها وآلهتها، ثم يقول لها في هدوء الجلال: لستم أنتم الميزان، ولا آباؤكم، ولا أشعاركم، ولا أصنامكم، ولا أسواقكم؛ الميزان هو الله؟ هنا نفهم لماذا لم تكفهم تهمة واحدة.

لأن القرآن كان يهدم أكثر من جهة في وقت واحد. يهدم وثنية الاعتقاد.

ويهدم وثنية اللغة حين تتحول إلى كبرياء.

ويهدم وثنية النسب حين يصبح بديلاً عن الحق.

ويهدم وثنية الجماعة حين ترفض أن تُحاكم إلى الله.

ويهدم وثنية النفس حين تقول: أنا أكبر من أن أتبع. ومن هنا كان لابد أن يقاوموه بكل اسمٍ يستطيعون اختراعه.

## خاتمة الفصل: الكلام الذي أفلت من الأسماء

لقد حاولوا أن يسمّوا القرآن لمهربوا منه.

لكن القرآن لم يكن محتاجًا إلى أسمائهم.

هو سمّى نفسه:

قرآنًا.

كتابًا.

ذكرًا.

نورًا.

فرقانًا.

هدى.

شفاء.

رحمة.

كل اسم من هذه الأسماء لا يضعه في خانةٍ أدبية ضيقة، بل يكشف  
تنزيلًا من رب العالمين.

وجهًا من وجوه وظيفته في الوجود.

فهو قرآن لأنه يُتلى ويجمع القلوب على نوره.

وهو كتاب لأنه يُثبت الحق ويجعله مرجعًا.

وهو ذكر لأنه يوقظ ما نسيه الإنسان من ربه ونفسه ومصيره.

وهو نور لأنه لا يكتفي بأن يخبرك، بل يجعلك ترى.

وهو فرقان لأنه لا يدع الأشياء مختلطة كما تحب النفوس

المراوغة.

وهو هدى لأنه لا يترك الإنسان في الطريق وحده.

وهو شفاء لأنه لا يعالج السطح فقط، بل يدخل إلى أمراض القلب

العميقة.

وهو رحمة لأنه ينقذ الإنسان من نفسه قبل أن ينقذه من عدوه.  
ولهذا فشلوا في تصنيفه.

وهو تنزيل لأن أصله من فوق الإنسان، لا من داخله.

لأنهم كانوا يبحثون له عن اسمٍ من أسفل، بينما هو نازلٌ من أعلى.

كانوا يريدون إدخاله في تاريخ الكلام، بينما هو جاء ليحاكم تاريخ

الكلام.

كانوا يريدون جعله قول بشر، بينما هو جاء ليكشف حدود البشر.

ومن هنا نفهم لماذا كانت عبارة الوليد بهذه القوة:

إنه يعلو وما يُعلَى عليه.

لقد قالها وهو لا يريد لنتيجتها أن تكتمل في قلبه.

قالها ذوقه، وخاف منها كبرياؤه.

قالها ميزانه البياني، ورفضتها مصلحته النفسية.

فكانت العبارة شهادةً للقرآن، وحجةً على صاحبها.

وفي الفصل القادم سنقترب أكثر من هذه العبارة نفسها.

لن نمر عليها بوصفها جملة مشهورة تُذكر في كتب السيرة، بل

سنقرأها كما ينبغي أن تُقرأ: كلمة رجلٍ خبيرٍ بالكلام وجد نفسه أمام

كلامٍ لا يستطيع إنكاره ولا يريد اتباعه.

وسنرى أن كل لفظٍ فيها يكشف طبقة من أثر القرآن:

الحلاوة.

الطلاوة.

الثمر.

الغدق.

العلو.

التحطيم.

فما الذي رآه الوليد في القرآن حتى نطق بهذه اللغة التي تشبه

الاعتراف أكثر مما تشبه الوصف؟

## شهادة الخصم

حين نطق الذوق بما عجز القلب عن اتباعه

ليست كل شهادةٍ للحق سواء.

فهناك شهادة المؤمن، وهي شهادة القلب الذي رأى فاطمًا،  
وعرف فسلم، وذاق فانقاد. وهذه شهادةٌ لها جمالها وطهرها  
وصدقها. غير أن هناك نوعًا آخر من الشهادة أشدَّ خطرًا من جهة

الحجة، وأعمق دلالةً من جهة الإلزام: شهادة الخصم.  
فالخصم لا يشهد عادةً إلا إذا غلب.

لا يمدح إلا إذا ضاقت به الحيلة.

ولا يقرّ بعلوّ خصمه إلا حين يعجز عن إنزاله.

ومن هنا كانت كلمة الوليد بن المغيرة في القرآن كلمةً فريدة في  
بإيها. ليست لأنها أجمل ما قيل في وصف القرآن، فالقرآن أعلى من  
أن ينتظر جمال وصف الواصفين، ولكن لأنها خرجت من رجلٍ لم  
يكن يريد للقرآن أن ينتصر في نفسه. خرجت من خصمٍ جاء يحاكم،

فعاد محكومًا. جاء وزن، فانكسر الميزان في يده. جاء يبحث عن  
ثغرةٍ ينفذ منها إلى الطعن، فإذا به يجد نفسه أمام كلامٍ قد أغلق عليه  
منافذ الإنكار.

لقد كان الوليد في قومه رجلًا يعرف الكلام. لم يكن غريبًا عن  
طبقات البيان، ولا بعيدًا عن أسواق الفصاحة، ولا جاهلًا بما يرفع  
القول أو يضعه. كان من بيت زعامة، ومن قوم يملكون حساسية  
عالية تجاه اللسان، وكان يعرف أن الكلمة في بيئته ليست صوتًا  
عابرًا، بل قدرٌ اجتماعي، ومقامٌ قبلي، ومادةٌ مجدٍ أو عار.  
فحين قال في القرآن ما قال، لم تكن عبارته مجاملةً ولا انهيارًا  
ساذجًا. لقد تكلم الرجل من داخل خبرته. تكلم بلسان العارف لا بلسان  
العامي. وفرقٌ بعيد بين أن يقول رجلٌ لا يعرف البيان: هذا كلام  
جميل، وبين أن يقول خبيرٌ تمرّس بأجناس الكلام: هذا قولٌ يعلو وما  
يُعلَى عليه.  
هنا تتحول العبارة من انطباع إلى شهادة.

وقد جاءت كلمته المشهورة: «والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنَّه ليحطم ما تحته».

هذه الجملة ليست مديحًا واحدًا، بل سلّمٌ كامل من الإدراك.

كل عبارة فيها تكشف طبقة من الأثر.

وكل لفظٍ فيها يشير إلى جهةٍ من جهات سلطان القرآن.  
إنها تبدأ من الذوق: **لحلاوة**.

ثم تنتقل إلى البهاء: **لطلاوة**.

ثم إلى البنية الداخلية: **أعلاه مثمر، وأسفله مغدق**.

ثم إلى التفوق: **يعلو وما يُعلى عليه**.

ثم إلى الأثر المعياري الساحق: **يحطم ما تحته**.

كأن الوليد لم يكن يصف نصًّا فحسب، بل يصف كائنًا حيًّا له

ظاهر وباطن، وعلوّ وجذر، وثمره وماء، وارتفاع وسلطان. وهذا

وحده يكشف أن القرآن لم يقع في حسّه وقوع العبارة الجميلة، بل وقع وقوع الحياة.

أولاً: "إنَّ لقوله لحلاوة" — حين يدخل الحق من باب الجمال

قال: إنَّ لقوله لحلاوة.

والحلاوة هنا ليست ترفاً ذوقياً، ولا زينةً لفظية، ولا ذلك النوع من العذوبة الذي يجعل العبارة مقبولة في السمع ثم تنتهي. الحلاوة في شهادة الوليد أثرٌ أعمق: انجذابٌ داخلي لا يملك السامع دفعه، ولذةٌ في التلقي لا تنفصل عن رهبة المصدر. هناك كلامٌ جميل، لكنه لا يغيّر شيئاً. وهناك كلامٌ عذب، لكنه ينتهي بانتهاء صوته.

وهناك كلامٌ مصنوعٌ بإتقان، لكنه يبقى على سطح النفس، لا يتجاوز منطقة الإعجاب.

أما القرآن فحلاوته ليست حلاوة الزخرفة، بل حلاوة الحق حين يجيء في صورته الكاملة: قوياً بلا قسوة، جميلاً بلا تكلف، واضحاً

بلا ابتذال، عميقًا بلا غموض، قريبًا من القلب مع أنه صادر من فوق القلب.

ولهذا كان أثر القرآن مختلفًا.

فهو لا يجذب السامع ليُسكِرَه عن الحقيقة، بل يجذبه ليوظله لها. لا يمنحه لذة تهرّبه من مسؤوليته، بل لذة تفتح عينه على مسؤوليته.

لا يعطيه جمالًا يستر العيب، بل جمالًا يكشف العيب في ضوء

أرحم وأقوى. حين يسمع العربي مثل قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ

شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: 3]

فهو لا يسمع جملةً عقدية فحسب؛ يسمع توازنًا جليلاً بين

الرحمة والهيبة.

المغفرة حاضرة.

وقبول التوبة حاضر.

وشدة العقاب حاضرة.

والفضل الواسع حاضر.

ثم يأتي التوحيد حاسماً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

ثم المصير: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

هذه ليست حلاوة رخوة. إنها حلاوة ممزوجة بالجلال.

كأن الآية تفتح للإنسان باب الرجاء، ثم تمنعه أن يحوّل الرجاء إلى عبث.

وتخيفه بالعقاب، ثم تمنعه أن يحوّل الخوف إلى يأس.

وتخبره أن الله وحده الإله، ثم تربط وجوده كله بالمصير إليه. فأي كلام بشري يستطيع أن يجمع في هذا المدى القصير كل هذه

القوى: الرحمة، والتوبة، والعقاب، والفضل، والتوحيد، والمصير؟

ومن هنا كانت الحلاوة في القرآن ليست مجرد عذوبة. إنها حلاوة

المعنى حين يستقر في موضعه، وحلاوة اللفظ حين يكون خادماً

للحق، وحلاوة النور حين لا يأتي منفصلاً عن الهيبة.

والوليد، بحسّه البياني، أدرك شيئاً من ذلك.

لم يقل: إن ألفاظه جميلة.

ولم يقل: إن عبارته حسنة.

بل قال:

إن لقوله لحلاوة.

كأنه أحس أن القرآن يملك مذاقًا خاصًا لا يمكن رده إلى مجرد حسن السبك. كان في القول شيء يُدّاق ولا يُحاط به، ويُحسّ ولا يُستنفد، ويُقرُّ به الذوق قبل أن يملك القلب شجاعة التسليم له.

ثانيًا: "وإنَّ عليه لطلاوة" — بهاء الوحي فوق جسد اللغة

ثم قال: وإنَّ عليه لطلاوة.

والطلاوة غير الحلاوة.

الحلاوة أثرٌ يدخل إلى النفس.

أما الطلاوة فهي بهاء يكسو الكلام من خارجه، رونقٌ يظهر عليه،

إشراقٌ لا تستطيع العين المعنوية أن تتجاهله. كأن للقرآن جمالًا

باطنًا يُدّاق، وجمالًا ظاهرًا يُرى في انتظامه وإيقاعه وحضوره.

هناك كلامٌ صحيح لكنه عارٍ من الطلاوة.

وهناك كلامٌ مطليٌّ بزينةٍ خارجية، لكنه فارغٌ من الصدق.

أما القرآن فطلاوته ليست طلاءً يضاف إلى المعنى، بل إشراق

المعنى نفسه على اللفظ.

وهذا سرٌّ من أسرار البيان القرآني: أن اللفظ لا يبدو منفصلاً عن

المعنى، ولا المعنى محتاجاً إلى زخرفةٍ خارجية عنه. كأن الكلمة

جاءت لأنها لا تصلح إلا هي، وكأن موضعها قد قُدِّر لها قبل أن

تُنطق، وكأن العبارة لا يمكن أن تُبدّل دون أن يختلّ شيء في النفس

قبل أن يختلّ في النحو.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا

مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ

وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23]

هذه الآية تصف أثر القرآن كما لو أنها تشرح شيئاً مما عجز الوليد

عن تفسيره.

## ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾

ليس أحسن الحديث لأنه أرقّه لفظاً فقط، بل لأنه أكمله حقاً، وأتمّه هداية، وأجمله نظماً، وأصدقه خبراً، وأعظمه أثراً.

ثم: ﴿نَقَشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾

فالقرآن لا يمرّ على الإنسان مرور المعلومة. إنه يبلغ الجسد. يبلغ الجلد. يبلغ ذلك الموضع الذي تتلقى فيه الكينونة كلها رجفة المعنى قبل أن تصوغه الأفكار.

ثم: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾

هذه هي طبيعة الجمال القرآني: يبدأ بالرهبة، ثم يفتح باب اللين.

يهزّك، لكنه لا يكسرک.

يفضحك، لكنه لا يبيئسك.

يوقفك أمام الجلال، ثم يدعوك إلى الرحمة.

وهذه الطلاوة التي لمحها الوليد ليست نعومة شكلية؛ إنها إشراق  
كلامٍ يجمع بين الهيبة والأنس، بين القشعريرة واللين، بين الانكسار  
والرجاء.

ولذلك لم يستطع أن يقول: هذا كلامٌ خشنٌ يرهب ولا يجذب.  
ولا استطاع أن يقول: هذا كلامٌ حلٌّ يطرب ولا يحاكم.  
بل قال: له حلاوة، وعليه طلاوة.

أي إن الجمال فيه من الداخل والخارج، في مذاقه وهيئته، في أثره  
وسمته، في ما يتركه في النفس، وفي ما يبدو عليه من بهاء.  
ثالثًا: "وإنَّ أعلاه لمثمر" — المعنى الذي كلما ارتفعت فيه

أعطاك

ثم قال: وإنَّ أعلاه لمثمر.

وهذه عبارة عجيبة.

فالوليد هنا لا يصف القرآن ككلامٍ مسطح، بل كشيء له علو.  
والعلو في النص ليس طولًا ماديًا، بل مراتب من المعنى. كأنه رأى  
أن القرآن إذا نظرت إلى أعلاه، إلى مقاصده الكبرى، إلى غاياته

العظمى، إلى توحيده، وإلى حديثه عن الله والآخرة والإنسان والسنن، وجدت ثمرًا لا ينقطع.

الكلام البشري قد يلمع في عبارة، ثم إذا صعدت إلى مقاصده وجدته صغيرًا.

قد تكون صياغته جميلة، لكن غايته محدودة.

قد يحسن وصف لحظة، لكنه يعجز عن تفسير المصير.

قد يبدع في تصوير عاطفة، لكنه لا يبني للإنسان طريقًا إلى الله. أما القرآن فكلما ارتفعت في النظر إليه ازداد إثمارًا.

تنظر إلى توحيده، فتجد أنه لا يحرر الإنسان من الصنم

الحجري فحسب، بل من كل صنمٍ داخلي: صنم الخوف، وصنم

الهوى، وصنم البشر، وصنم العادة، وصنم النفس.

وتنظر إلى حديثه عن الآخرة، فتجد أنه لا يخبرك عن مستقبل بعيد

فقط، بل يعيد ترتيب حاضرك.

وتنظر إلى قصصه، فتجد أنها ليست تاريخًا يمضي، بل سننًا

تتكرر.

وتنظر إلى أوامره، فتجد أنها لا تنظم الظاهر وحده، بل تبني الإنسان من الداخل.

وتنظر إلى نواهيه، فتجد أنها لا تقمع الرغبة، بل تنقذها من أن تصبح سيِّداً على صاحبها.  
هذا معنى أن أعلاه مثمر.

فالقُرآن في مقاصده العليا ليس شجرة يابسة من المفاهيم، بل شجرة تُؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 24-25]

ما أليق هذه الآية بشهادة الوليد، وإن لم يكن يقصدها.

## ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾

## ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾

هذا هو القرآن في أثره: أصلٌ ثابت في الحق، وفرعٌ ممتد في الوعي، وثمرٌ يتجدد في القلوب. لا يعطيك معناه مرةً ثم ينتهي. كل رجوعٍ إليه رجوعٌ إلى نبع، لا إلى نصٍ استنفد.

ولهذا كان القرآن يُقرأ في كل عصر، فيجد فيه كل عصرٍ ما يخاطبه، لا لأنه يتبدل بتبدل الأهواء، بل لأنه من العمق بحيث يكشف لكل زمنٍ علته، ولكل نفسٍ مرضها، ولكل مرحلةٍ سؤالها. الكلام البشري يهرم؛ لأنه ابن سياقه.

أما القرآن فلا يهرم؛ لأنه كلام من يعلم الإنسان في كل سياق.

والوليد حين قال: أعلاه مثمر

فكأنه أدرك أن القرآن لا يملك جمال السطح فقط، بل يملك ثمر المقصد. أعلاه ليس فراغاً، ولا تجريدًا باردًا، ولا علوًا متعالياً عن حاجة الإنسان، بل علوٌ مثمر. وهذا من كمال الوحي: أنه يرتفع بك

إلى الله، ثم يردّك إلى الأرض إنساناً أبصر، وأعدل، وأطهر، وأشد  
وعياً بمصيره.

رابعاً: "وإنَّ أسفله لمغدق" — الجذر الذي لا يجف

ثم قال: وإنَّ أسفله لمغدق.

إذا كان أعلاه مثمرًا، فأسفله مغدق.

وإذا كان فرعه يعطي، فجذره يفيض.

وإذا كانت مقاصده العليا مثمرة، فأصوله العميقة مملوءة بالماء.

وهذه من أجمل ما في العبارة؛ لأنها تنقل القرآن من كونه بناءً

لغويًا إلى كونه شجرة حياة. فالقرآن ليس له علوٌ بلا أصل، ولا ثمرٌ

بلا ماء، ولا جمالٌ بلا جذر. إنه ممتلئ من أعماقه.

والغدق هو الوفرة.

هو الماء الكثير.

هو الامتلاء الذي لا يعطيك قطرةً ثم ينضب.

وهكذا القرآن في أصوله:

في توحيده غدق.

وفي أسمائه الحسنی غدق.

وفي رؤيته للإنسان غدق.

وفي سننه غدق.

وفي وعده ووعيده غدق.

وفي تصويره للنفس غدق.

وفي كلمته لمحمد الخليل **وَجَدَ الْوَهْمَ أَكْبَرَ وَالْغُرُورَ غَدَقَ**.

وكلما ظننت أنك بلغت قرار المعنى، فتح لك قراراً آخر.

وكلما قلت: هذه الآية أعرفها، ردّت عليك الأيام بأنك لم تكن

تعرف منها إلا القدر الذي احتجته بالأمس، أما اليوم فلها فيك باب

جديد.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ

الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:

الكلمات الإلهية لا تُستنفد؛ لأن مصدرها ليس عقلاً محدوداً، ولا وجداناً بشرياً، ولا تجربةً محصورة، بل علم الله. والقرآن، بوصفه كلام الله المنزل، يحمل من هذا الغنى ما يجعل الإنسان يقف أمامه متلقياً لا مستنفداً، متعلماً لا مالِكا، منفتحاً لا محيطاً. ولذلك كانت مشكلة المتكبر مع القرآن أنه يريد أن يحيط به قبل أن يخضع له.

يريد أن يضعه في خانة، ثم يقرر موقفه منه من فوق. لكن القرآن لا يمنح الإنسان هذا الموضع. إنه لا يدخل تحت الإنسان ليحكم عليه، بل يأتي من فوقه ليحكمه. وهذا هو معنى الغدق في الأسفل: أن القرآن ليس نصّاً بلا عمق. ليس قمةً معلقةً في الهواء. إنه **rooted** — بلغة العصر — متجذّر في حقيقة الوجود، في علم الله، في فطرة الإنسان، في سنن الحياة، في المصير الأخير.

ولذلك لا يزال الناس يردّون إليه فيجدون فيه حياة.

العالم يجد فيه نظام المعنى.

والعابد يجد فيه زاد القلب.

والمذنب يجد فيه باب الرجاء.

والمكسور يجد فيه بلسم الرحمة.

والمتكبر يجد فيه مرآة تكشف كبره.

والحائر يجد فيه فرقان الطريق.

ومن ظن أنه تجاوزه، لا يكون قد تجاوز القرآن، بل يكون قد

تجاوز حاجته إلى الصديق مؤقتًا، أو هكذا يخدع نفسه. <sup>عطش مرة.</sup> قالقران ليس نبعا عند طرف الطريق لمن

إنه البحر الذي كلما شربت منه ازدادت علمًا بعطشك.

خامسًا: "وإنَّه ليعلو وما يُعلى عليه" — التفوق الذي لا يدخل

سوق المنافسة

ثم بلغ الوليد ذروة عبارته فقال: وإنَّه ليعلو وما يُعلى عليه.

وهنا انتقل من وصف الجمال إلى تقرير العلو.

والعلو غير الجمال.

قد يكون الشيء جميلًا ولا يكون عاليًا.

وقد يكون مؤثراً ولا يكون حاكماً.

وقد يكون بديعاً في فنه، لكنه لا يتجاوز حدوده.

أما القرآن فهو يعلو.

يعلو على الشعر لا لأنه موزونٌ أجمل من الوزن، بل لأنه ليس

محكوماً بمنطق الشعر أصلاً.

ويعلو على الخطابة لا لأنه أخطب من الخطباء، بل لأنه لا يطلب

تصفيق الجمهور، بل يقيم عليهم الحجة.

ويعلو على الحكمة البشرية لا لأنه حكمة مركزة فقط، بل لأنه يردّ

الحكمة إلى مصدرها الإلهي.

ويعلو على الفلسفة لا لأنه يطرح أسئلة الوجود فقط، بل لأنه يجيب

عنها من موضع الوحي لا من حيرة العقل المجرد.

ويعلو على التجربة الإنسانية لا لأنه يتجاهلها، بل لأنه يفسرها من هذا العلوّ هو ما جعل كل محاولة لمنافسته تنتهي إلى صغار. لأن فوقها.

القرآن لا يدخل سوق الكلام كبضاعةٍ أفصح من بضاعة، بل يأتي

كميزان للسوق كلها. ليس شاعراً أقوى بين الشعراء، ولا خطيباً أبلغ

بين الخطباء، ولا حكيماً أعمق بين الحكماء؛ إنه كلام الله، ومن ثم فموقعه ليس داخل الهرم البشري، بل فوقه.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾

### [الطور: 34]

وقال: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

### [الإسراء: 88]

هذه الآيات ليست مجرد تحدٍّ بلاغي، بل إعلان عن طبيعة الفارق بين كلام الخالق وكلام المخلوق. فالبشر قد يتعاونون.

وقد يجمعون ملكاتهم.

وقد يستعين بعضهم ببعض.

وقد يصنعون نصوصاً عظيمة في حدود القدرة البشرية.

لكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا قرآنًا؛ لأن القرآن ليس مجموع مواهب يمكن جمعها، بل تنزيل من الله. وليس الإعجاز فيه جهة واحدة لو أمكن تقليدها لانتهى الأمر، بل هو اجتماع جهات: اللفظ، والمعنى، والنظم، والهداية، والأثر، والتشريع، والغيب، والخلود، والنفاز إلى النفس، وبناء الأمة، وتحويل الإنسان، وكشف السنن، ومخاطبة الفطرة، ومقاومة الزمن. إنه يعلو لأن مصدره أعلى.

ويعلو لأن مقاصده أعلى.

ويعلو لأن أثره أعلى.

ويعلو لأن الزمن لا يستهلكه.

ويعلو لأن خصومه يذهبون ويبقى.

ويعلو لأن كل جيل يأتي إليه كأنه يخاطبه الآن. إنه لا يعيش على ذاكرة المؤمنين وهذه من أعجب حقائق القرآن: أنه لا يعيش على ذاكرة المؤمنين

به فقط، بل يعيش بقوته الذاتية في كل تلاوة صادقة. ليس أثره أثر

نصٍ قديم تُحفظ قيمته احترامًا للتاريخ، بل أثر خطابٍ حاضرٍ يملك

أن يوقظك في اللحظة التي تسمعه فيها.

ومن هنا لم يقل الوليد: إنه عالٍ.

بل قال: يعلو.

والفعل المضارع هنا — وإن لم يكن هو يقصد كل ما نستلهمه منه — يحمل حركة مستمرة. كأن العلوّ ليس صفة ساكنة، بل فعل دائم. القرآن لا يزال يعلو. كلما أراد عصرٌ أن يحبسه في تفسيرٍ مادي ضيق علا، وكلما أراد خصمٌ أن يرده إلى إنتاج ثقافي علا، وكلما أراد متذوقٌ أن يختزله في الجمال علا، وكلما أراد قارئٌ أن يستهلكه كما يستهلك النصوص علا عليه وأعاد تربيته من جديد. إنه يعلو وما يعلو عليه.

لا بمعنى أنه يدخل مع الكلام في سباقٍ ثم يفوز، بل بمعنى أن كل سباقٍ معه باطل من أصله؛ لأن كلام الله لا يوضع في كفة وكلام البشر في كفة على سبيل النديّة. إنما يذكر التحدي لإظهار العجز، لا لأن القرآن ينتظر البرهان على علوّه من محاولة البشر.

سادساً: "وإنَّه ليحطم ما تحته" — حين يكشف النور هشاشة

ما سواه

ثم ختم الوليد عبارته بقوله: وإنَّه ليحطم ما تحته.

وهذه أشدَّ عبارته رهبة.

فالتحطيم هنا ليس عنفاً لفظياً، ولا قسوةً صوتية، ولا صداماً خارجياً. القرآن لا يحطم بالصراخ، ولا بالتهويل الفارغ، ولا بسحق الإنسان سحقاً يائساً. بل يحطم بمعنى أعمق: يحطم المقاييس الزائفة حين يحضر المقياس الحق. يحطم الأوهام حين يجيء النور. يحطم الكبر حين يكشف صغره. يحطم التصنيفات البشرية حين تعجز عن

احتوائها<sup>١</sup> لا يحتاج الحق إلى أن يهاجم الباطل.

يكفي أن يظهر.

فالظلمة لا تُدفع بالعصا، بل بالمصباح.

والوهم لا يُحطم بالضجيج، بل بانكشاف الحقيقة.

والزيف لا يحتاج دائماً إلى مطرقة؛ يكفي أن يوضع بجوار  
الصدق.

وهكذا كان القرآن.

حين حضر القرآن، ظهر الشعر على قدره: عظيماً في بابه،  
لكنه ليس وحيًا.

وظهرت الكهانة على حقيقتها: غموضاً مصنوعاً لا يملك نور  
البيان.

وظهرت الأصنام على صمتها: حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا  
تهدي.

وظهر مجد القبيلة على محدوديته: لا ينجي من الله، ولا يزن  
الإنسان عند الحق.

هذا هو التحطيم.  
وظهر الكبر على قبحه: نفسٌ صغيرة تنتفخ أمام ربِّ عظيم.

ليس أن القرآن ألغى جمال ما في الدنيا من كلام، بل أعاد كل شيء  
إلى مرتبته. وهذا أخطر على الباطل من مجرد الهدم؛ لأن الباطل

يعيش غالبًا على تضخيم نفسه. فإذا جاء الحق، لم يحتج أن يسحقه صراخًا، بل يكفي أن يضعه في حجمه الحقيقي.

ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ

زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18]

تأمل الفعل: ﴿نَقْذِفُ﴾

إنه مجيء الحق بقوة.

ثم: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾

أي يصيب رأس الباطل، مركز توهمه، أصل دعواه.

ثم: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾

كأن الباطل كان ينتظر لحظة الانكشاف ليسقط؛ لأنه لا يملك

وجودًا حقيقيًا مستقلًا، بل يعيش ما دام النور غائبًا أو محجوبًا.

وهكذا كان أثر القرآن فيما تحته.

يحطم لا لأنه يصرخ، بل لأنه يصدق.

يحطم لا لأنه يفتعل الهيبة، بل لأنه من عند الله.

يحطم لا لأنه يلغي العقل، بل لأنه يردّ العقل إلى فطرته.

يحطم لا لأنه يحتقر الجمال، بل لأنه يكشف أن الجمال إذا انفصل

عن الحق صار فتنةً ناقصة.

ومن هنا كان الوليد صادقًا في الوصف، كاذبًا في الموقف.

صادقًا حين قال: يحطم ما تحته.

كاذبًا حين حاول بعد ذلك أن يسمي هذا التحطيم سحرًا أو قول

بشر.

فالقُرآن حطم أول ما حطم في تلك اللحظة ميزان الوليد نفسه.

ذهب ليحاكمه، فإذا به يكتشف أن القرآن هو الذي يحاكمه.

ذهب ليضعه تحت خبرته، فإذا بخبرته كلها تصير تحته.

ذهب ليبحث عن اسمٍ يملكه به، فإذا بالقرآن يملك عليه ذوقه.

وهذه هي الهزيمة الأولى: أن يعترف داخله قبل أن يكابر خارجه.

## بين شهادة الذوق وخيانة القرار

لكن ما الذي حدث بعد هذه الشهادة؟

هنا ينتقل المشهد من البلاغة إلى المأساة.

فلو كانت القصة قصة ذوقٍ فقط، لانتَهت عند هذه العبارة. رجلٌ

خبير سمع كلامًا عظيمًا، فاعترف بعظمته. لكن القرآن لا يترك

الشهادة عند حدودها الجمالية. كل شهادةٍ للحق تطالب صاحبها بما

بعدها.

إذا قلت: هذا حق، فقد بدأت مسؤوليتك.

وإذا قلت: هذا نور، فقد لم يعد الظلام بريئًا فيك.

وإذا قلت: هذا يعلو، فقد صرت مطالبًا أن تنزل أنت عن كبرائك.

وإذا قلت: ما يُعلَى عليه، فقد شهدت أن كل ما تخاف عليه دونه لا

يستحق أن يُقدَّم عليه.

وهنا فشل الوليد.

لقد شهد للقرآن بما يرفعه، لكنه لم يسمح لهذه الشهادة أن تخفض  
كبرياءه.

أقرّ بعلوّ الوحي، لكنه بقي متعلّقًا بعلوّ نفسه في قومه.  
عرف أن الكلام ليس من جنس كلام البشر، لكنه خاف أن يتبع ما  
عرف، لأن اتباعه سيجعله في نظر قريش تابعًا بعد أن كان سيّدًا،  
ومقتديًا بعد أن كان متبوعًا، ومنقادًا بعد أن اعتاد أن تُنقاد له الوجوه.  
وهذه هي اللحظة التي نزل فيها القرآن يكشف البنية النفسية

للموقف، لا مجرد نتيجه الكلامية: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ  
وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا  
ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر:

## [16-11]

هذه الآيات لا تدخل إلى ظاهر القول فقط، بل إلى جذوره.

﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾

يا له من كشفٍ قاصم.

فالإنسان الذي يتضخم بماله وبنيه وجاهه يُعاد هنا إلى أصله

الأول: وحيدًا.

قبل المال، قبل البنين، قبل المجلس، قبل المنزلة، قبل الهيبة

الاجتماعية، كان وحيدًا. جاء إلى الوجود لا يملك شيئًا، ثم ظن أن

ما أُعطيه صار درعًا يقف به أمام ربه.

ثم: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ

تَمْهِيدًا﴾

هذه ليست مجرد تعداد للنعم. إنها تعرية لمصدر الغرور.

ما الذي منعه؟

مالٌ ممدود.

وبنون حضور.

ومكانة ممهّدة.

أي إن البيئة التي صنعت له السيادة صارت هي نفسها الحجاب

الذي كونه يغفل التواضع. حين لا يُشكر: يتحول من نعمةٍ تعين على

الحق إلى جدارٍ يحجب عنه.

ثم يقول: ﴿كَأَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾

ليس جاهلاً فقط.

ولا متردداً فقط.

ولا باحثاً لم يصل.

بل: ﴿عَنِيدًا﴾

والعناد موقفٌ بعد ظهور ما يكفي. إنه تصلّب النفس حين لا تريد

أن تنحني. إنه مقاومة الحق لا لأنه غير واضح، بل لأنه واضح بما

يهدد مملكة الأنا.

ثم تمضي الآيات في كشف الحركة الداخلية: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ

ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ إِنَّ هَذَا إِلَّا

**قَوْلُ الْبَشَرِ) [المدثر: 18-25]**

ما أعجب هذا التصوير القرآني.

إنه لا يذكر النتيجة وحدها، بل يصور مراحل صناعة الكذبة.

## ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

أي لم تكن التهمة عفوية. لم يكن قوله "سحر" انطباعًا مباشرًا. كان تقديرًا محسوبًا، صناعة موقف، بحثًا عن تسمية نافعة سياسيًا واجتماعيًا. إنه لا يسأل: ما حقيقة هذا القرآن؟ بل يسأل: ما الاسم

الذي نستطيع به صرف الناس عنه؟

ثم: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾

نظرة من يراجع حيلته، ويفتش في الوجوه، ويقيس أثر الكلمة

التي سيقولها.

ثم: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾

هنا تظهر الكلفة النفسية. الكذبة ليست مريحة كما يظن صاحبها.

هناك عبوس. هناك انقباض. هناك شدّ في الوجه؛ لأن الداخل ليس

منسجمًا مع الخارج. الذوق شهد، واللسان سيكذب. القلب عرف،

والموقف سيخون.

ثم: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾

هذه هي الخلاصة.

الإدبار حركة الجسد والمعنى.

والاستكبار حركة النفس.

أدبر عن القرآن، واستكبر عن التسليم.

أدبر عن النور، واستكبر أن يخلع ظله القديم.

أدبر لأن المواجهة كلفته، واستكبر لأن الانقياد كان سيكسر

صورته.

ثم جاءت التهمة: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ

الْبَشَرِ ﴿

بعد كل التفكير والتقدير والنظر والعبوس والإدبار والاستكبار،

انتهى إلى كلمة لا تفسر القرآن، لكنها تفسر خوفه منه.

وهنا نرى الفارق بين العبارة الأولى والعبارة الثانية.

في الأولى قال ذوقه: إن له لحلاوة... وإنه يعلو وما يُعلَى عليه.

وفي الثانية قالت مصلحته: إن هذا إلا سحر يؤثر.

الأولى شهادة الداخل حين واجه القرآن.

والثانية خطاب الخارج حين واجه الناس.

الأولى صدق اللحظة.

والثانية كذبة الموقف.

الأولى خرجت من ميزان البيان.

والثانية خرجت من حساب الزعامة.

وهكذا قد يكون الإنسان صادقًا في لحظة، ثم يخون صدقه في

اللحظة التالية حين يتذكر ثمنه.

حين يصبح الجمال حجة

من أخطر ما في قصة الوليد أن الجمال نفسه صار حجة عليه.

فنحن كثيرًا ما ننظر أن الحجة تأتي من البرهان العقلي وحده، لكن

القرآن يحتج على الإنسان من جهات كثيرة: من جهة العقل، ومن

جهة الفطرة، ومن جهة الأخلاق، ومن جهة التاريخ، ومن جهة  
الجمال.

والجمال في القرآن ليس ترفاً. إنه طريق إلى الحق.

ليس المقصود أن يعجب الإنسان ثم يقف، بل أن يكون إعجابه باباً

للافتتاح على المصدر. فإذا أدرك أن هذا الجمال فوق القدرة

البشرية، صار الجمال نفسه شاهداً على الوحي.

وهذا ما وقع للوليد.

لقد أدرك من جهة الذوق ما كان ينبغي أن يقوده إلى جهة الإيمان.

لكن الذوق حين لا يصحبه تواضع قد يتحول إلى حجة على صاحبه.

وقد يكون الإنسان رفيع الحس، لكنه ساقط القرار.

وقد يرى الجمال في أعلى صوره، ثم لا يتبعه لأنه يخاف أن يغيّره.

وهذا درس شديد لنا.

ليس كل من تكلم عن القرآن بكلامٍ جميل قد سلّم للقرآن.

وليس كل من وصف إعجازه قد خضع له.

وليس كل من عرف بلاغته قد جعله حاكمًا على حياته.

قد يظل القرآن عند بعض الناس موضوعًا للذوق، لا مصدرًا

للتسليم.

مادةً للإعجاب، لا ميزانًا للطاعة.

نصًا يقال فيه الكلام الرفيع، لا نورًا يعاد به بناء النفس.

وهنا يكون الخطر.

فالقرآن لا يريد منك أن تقف عند قوله: ما أجمله.

بل يريدك أن تنتقل إلى: ما أحقّه أن يُتبع.

لا يريد أن تكون متفرجًا على نوره.

بل أن تكون من أهله.

## شهادة الخصم وحجة التاريخ

لقد بقيت شهادة الوليد لأنها من جنس الشهادات التي لا تموت. لم تبقَ لأنها تضيف إلى القرآن شيئاً، بل لأنها تكشف أثر القرآن في الدّ خصومه.

والقرآن لم يكن محتاجاً إلى أن يقول الوليد ما قال. ولكننا نحن نحتاج أن نتأمل هذا الموقف، لأنه يكشف لنا أن الوحي حين نزل لم يكن ضعيفاً يحتاج إلى أتباعه كي يمنحوه هيبتة. بل كانت هيبتة تبلغ حتى الذين لا يريدون الإيمان به. كانت قوته تظهر حتى في اضطراب خصومه. وكان سلطانه يشهد له من داخل

المعسكر الذي يحاربه. وهذا من أسرار الحق: أن خصومه كثيراً ما يحملون بعض

شواهدهم وهم يريدون هدمه.

فكلمة يقولونها في لحظة اضطراب قد تكون أقوى من خطبة طويلة.

وتهمة يختلقونها قد تكشف خوفهم مما يهتمون.

وتحذيرهم من سماعه قد يدل على أنهم يعرفون أثره.

وعجزهم عن تسميته قد يدل على أنه فوق أسمائهم.

لهذا لا نقرأ شهادة الوليد بوصفها مدحاً للقرآن فحسب، بل

بوصفها وثيقة اضطراب.

وثيقة إنسانٍ لمس النور ثم تراجع.

وثيقة ذائقةٍ عرفت، ونفسي أنكرت.

وثيقة عقلٍ اقترب، وكبر حال دون الوصول.  
والأشدَّ إيلاماً أن القرآن كشف هذا كله في سورة المدثر بلغةٍ لا

تدع للغموض مكاناً: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾

كلمتان تختصران مأساة الرجل.

أدبر: أي ترك الاتجاه الصحيح.

واستكبر: أي لم يتركه لعدم وضوحه، بل لعلّوه موهوم في نفسه.

وهنا تكتمل صورة المأساة.

فليست المشكلة أنه لم يرَ.

ولا أنه لم يسمع.

ولا أنه لم يذق.

بل أنه لم يرضَ أن ينحني.

من الوليد إلى الإنسان

والوليد، بهذا المعنى، ليس مجرد رجلٍ من قريش.

إنه صورةٌ متكررة في الإنسان حين تكون معرفته أكبر من

شجاعته، وحين يكون ذوقه أصدق من إرادته، وحين يعرف من

الحق ما يكفي لإنقاذه، ثم يستعمل ذكائه ليصنع عذر هلاكه.

كم مرة يفعل الإنسان هذا في صورٍ أصغر؟

يعرف أن طريقًا ما حق، ثم يقول: ليس الآن.

يعرف أن موقفًا ما باطل، ثم يبحث له عن تبرير.

يعرف أن عليه أن يعتذر، لكن كبرياءه يمنعه.

يعرف أن القرآن يطالبه بتغييرٍ ما، فيحول الآية إلى موضوع تأملٍ

بعيد كي لا يجعلها أمرًا مباشرًا له.

يعرف أن الله يناديه، لكنه ينشغل بتحليل النداء بدل أن يجيب.

هذه هي الوليدية الخفية في الإنسان.

ليست أن يقول بلسانه ما قال الوليد، بل أن يعيد حركته النفسية:

أن يرى ثم يراوغ.

أن يعرف ثم يبرر.

أن يشهد ثم يتراجع.

أن يضع بينه وبين الحق اسمًا زائفًا، أو عذرًا باردًا، أو حسابًا

اجتماعيًا، أو خوفًا على صورة الذات. ولهذا ينبغي أن نخاف من هذه القصة لا أن نكتفي بإدانتها.

فمن السهل أن نقول: عجبًا للوليد، كيف شهد ثم كابر؟

لكن الأصعب أن نسأل: أين شهدنا نحن ثم كابرنا؟

أين عرفنا ولم ننقد؟

أين لمس القرآن موضعًا في حياتنا، فعرفنا أنه يطلب منا تغييرًا، ثم

أجلنا ذلك التغيير لأننا لا نريد دفع ثمنه؟

إن القرآن حين يروي لنا أمثال هذه المواقف لا يريد أن يجعلنا متفرجين على هلاك الآخرين، بل يريد أن يطهرنا من أسباب الهلاك في أنفسنا. فكل قصة في القرآن تحمل مرآة. ومن لم ير نفسه في شيء من مرايا القرآن، خشي عليه أن يكون يقرأ بعينه وحدها، لا بقلبه.

### خاتمة الفصل: العبارة التي أدانت صاحبها

لقد قال الوليد كلمةً عظيمةً في القرآن.

لكن عظمة الكلمة لم تنقذه؛ لأن الكلمات التي لا تتحول إلى تسليم قد تصير حجة على صاحبها. والإنسان لا ينجو بمجرد أن يقول عن الحق كلامًا جميلًا، بل ينجو حين يعطي الحق حقه من الانقياد.

قال: إن له لحلاوة.

لكنه لم يذق حلاوة الإيمان.

وقال: وإن عليه لطلاوة.

لكنه لم يسمح لهذا البهاء أن يغسل ظلمة كبره.

وقال: وإن أعلاه لمثمر.

لكنه لم يمد يده إلى الثمرة.

وقال: وإن أسفله لمغدق.

لكنه لم يشرب من الماء.

وقال: وإنه ليعلو وما يُعلى عليه.

لكنه أثر أن يبقى تحت سقف جاهه.

وقال: وإنه ليحطم ما تحته.

لكنه خاف أن يكون أول ما يتحطم فيه صنم نفسه.

وهنا تبلغ القصة ذروتها الموجعة: أن الإنسان قد يصف طريق

النجاة بدقة، ثم لا يسلكه. وقد يشهد للنور بأنه نور، ثم يختار الظل.

وقد يملك من الذوق ما يجعله يعرف عظمة القرآن، ولا يملك من

الصدق ما يجعله من أهله.

فالقُرآن لا يحتاج إلى شهادة الوليد، ولكن الوليد كان يحتاج إلى أن يتبع شهادته.

والحق لا ينقصه أن يكابر المكابر، ولكن المكابر هو الذي ينقص من نفسه كلما قاوم ما عرف.  
ومن هنا ننتقل في الفصل القادم إلى جوهر المأساة:

لماذا لا يكفي الفهم؟

ولماذا قد يبلغ الحق عقل الإنسان وذوقه، ثم يعجز عن دخول منطقة القرار فيه؟

وما ذلك الحجاب الداخلي الذي يجعل النفس ترى ثم لا تتبع، وتسمع ثم لا تدعن، وتشهد ثم تخون شهادتها؟  
إنه الكبر.

لا بوصفه خُلُقًا سيئًا فحسب، بل بوصفه حجابًا بين الإنسان ونجاته.

## الفصل الرابع

حين ينتصر الكبر على الذوق

الحجاب الأخير بين المعرفة والنجاة

ليست مأساة الوليد بن المغيرة أنه لم يعرف.

فلو كان جاهلاً محضاً، لكانت قصته أيسر.

ولو كان بعيداً عن البيان، لكان في جهله شيء من العذر.

ولو كان لم يسمع القرآن إلا سماعاً عابراً، لم تبلغه الصدمة

كاملة، ولم يدخل النص إلى موضع الحكم في ذائقته.

لكن الذي يجعل قصته فاجعةً إنسانية عميقة أنه عرف قدراً كافياً

لئلا يجهل، وشهد قدراً كافياً لئلا يعتذر، وذاق قدراً كافياً لئلا يقول:

لم أدري.

لقد وصل القرآن إليه.

وصل إلى أذنه.

ووصل إلى ذائقته.

ووصل إلى عقله البياني.

ووصل إلى موضع التمييز بين كلام البشر وما ليس من معدن كلامهم.

لكنه حين اقترب من الموضع الحاسم في الإنسان — موضع القرار — وجد هناك حجابًا آخر، أقسى من الجهل، وأغلظ من الشبهة، وأشد مقاومةً من ضعف الفهم. وجد الكبر.

والكبر ليس مجرد شعور داخلي بأن الإنسان أفضل من غيره. هذه صورته الأخلاقية الظاهرة. أما حقيقته العميقة فهي أنه رفضٌ لانخفاض أمام الحق. أن يرى الإنسان الحق أكبر منه، ثم لا يطيق أن يكون صغيرًا بين يديه. أن يدرك أن عليه أن ينحني، لكنه يفضل أن يكسر صلته بالنور على أن يكسر صورة نفسه. ولذلك كان الكبر من أخطر أمراض النفس؛ لأنه لا يمنع الإنسان

من رؤية الحق دائمًا، بل قد يسمح له أن يراه، ثم يمنعه من اتباعه. فهو ليس حجابًا على العين فقط، بل حجاب على الإرادة. وقد يرى

المتكبر ما لا يراه غيره، لكنه يستعمل رؤيته لا ليهتدي، بل ليبحث عن طريقةٍ أنيقةٍ للهرب.

ولهذا قال الله تعالى في لحظة الكشف الحاسمة عن الوليد: ﴿ثُمَّ

أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: 23]

آيتان في كلمتين.

أدبر: حركة الاتجاه.

واستكبر: علة الإدبار.

لم يقل القرآن: ثم لم يفهم.

ولم يقل: ثم اشتبه عليه الأمر.

ولم يقل: ثم غابت عنه الحجة.

بل قال: ﴿أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾

كأن القرآن يريد أن ينزع عن الموقف كل غطاءٍ معرفي زائف.

ليست القضية هنا قضية قصور في البيان، بل قضية فساد في التلقي.

ليست المشكلة أن النور لم يكن كافيًا، بل أن النفس لم ترد أن تنكشف تحت النور.

### الكبر حين يسبق الحجة

قد يتوهم الإنسان أن الكبر يأتي بعد الجهل، وأن المتكبر يرفض الحق لأنه لم يفهمه. لكن القرآن يكشف لنا أن الكبر قد يسبق النظر نفسه، فيفسد أداة النظر قبل أن تبدأ. فالمتكبر لا يدخل إلى الحقيقة كما يدخل الطالب.

لا يأتيها مفتقرًا، بل متعاليًا.

لا يسأل: ماذا يريد الله مني؟

بل يسأل في الخفاء: كيف أحافظ على نفسي مما يريده الله مني؟ وهنا ينقلب ميزان التلقي.

فبدل أن يكون الإنسان عبدًا يقف أمام الوحي طالبًا الهداية، يصير قاضيًا يريد أن يدخل الوحي في قوالبه، ويمنحه الإذن بالعبور إن لم يهدد سلطانه الداخلي.

وهذا بالضبط ما وقع في نموذج الوليد.

لقد سمع القرآن، لكنه لم يسمعه من موضع الفقر إلى الحق، بل من موضع الزعيم الذي يريد أن يعرف: ماذا نفعل بهذا النص الجديد؟ كيف نصنّفه؟ كيف نمنع أثره؟ بأي اسمٍ نطفئ دهشته في الناس؟

كان السؤال في داخله ليس: هل هذا حق؟

بل: ما الاسم الذي يحفظ لقريش سلطانها أمام هذا الحق؟

وهذه لحظة خطيرة جدًا.

لأن الإنسان حين يدخل إلى الحقيقة بهذه النية لا يبحث عن النجاة،

بل يبحث عن السيطرة. لا يريد أن يتلقى، بل أن يحتوي. لا يريد أن

يُقَاد، بل أن يجد طريقةً يبقى بها قائدًا ولو أمام كلام الله.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قُتِلَ

كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: 18-20]

تأمل هذا التصوير.

لم تكن القضية أن الوليد قال كلمة خاطئة في لحظة غضب.

بل جلس يصنع الموقف.

يفكر.

يقدر.

يرتب.

يبحث عن الوصف الذي يحقق الغرض بل حركة رجل سياسة مع الحق. وهذه ليست حركة طالب حقيقة، بل حركة رجل سياسة مع الحق.

إنه لا يريد أن يعرف، بل يريد أن ينجو من مقتضى ما عرف.

لا يريد أن ينقاد لما ظهر له، بل يريد أن يصنع عبارة تمنع ظهوره

في الناس.

ثم قال الله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدرثر: 21-22]

كأن وجهه صار مرآة للمعركة الداخلية.

نظر، لا نظر المستبصر، بل نظر المتحير في صناعة الكذبة.

ثم عبس وبسر، لأن النفس حين تخون ما عرفت لا تخرج من الخيانة

مرتاحة. إن الكذب على الحق يترك أثره على الوجه قبل اللسان.

هناك انقباضٌ داخلي، توترٌ خفي، ظلمةٌ تتسلل إلى الملامح حين يريد الإنسان أن يقول غير ما شهد به وجدانه.

ثم جاءت النتيجة: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾

هذه هي الحركة النهائية:

إدبار في الاتجاه، واستكبار في الداخل.

فالكبر هو الذي جعل التفكير تقديرًا للمكر لا بحثًا عن الهدى.

وجعل النظر بحثًا عن مخرج لا طلبًا للحقيقة.

وجعل العبوس أثرًا لصراعٍ بين شهادة الذوق وخيانة القرار.

وجعل اللسان يقول في النهاية: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ إِنَّ هَذَا

إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿[المدثر: 24-25]

حين لا تكون الشبهة فكرية

ليس كل اعتراضٍ على الحق شبهة فكرية.

بعض الاعتراضات شهواتٌ متنكرة في ثوب الفكرة.

وبعضها كبرياءٌ يلبس لباس السؤال.

وبعضها خوفٌ على المكانة يقدم نفسه كأنه بحثٌ موضوعي.

وبعضها إرادة هروبٍ تصنع حولها حججًا كثيرة حتى لا تظهر

عارية.

وهذا من أعظم ما يجب أن ننتبه له.

فالإنسان بارع في تبرير نفسه.

قد لا يقول: أنا أرفض الحق لأنني متكبر.

بل يقول: لم أقتنع بعد.

وقد لا يقول: أخاف أن أفقد مكاني بين الناس.

بل يقول: القضية تحتاج إلى مزيد نظر.

وقد لا يقول: لا أريد أن أغَيّر حياتي.

بل يقول: هناك إشكالات تحتاج إلى الجواب، وهناك عقول

تبحث بجدّ، وليس كل متردد متكبرًا. لكن الخطر أن تتحول الشبهة

إلى قناع، وأن يصبح السؤال وسيلة تأجيل، وأن يتخذ الإنسان من الذكاء خادمًا لمرضه لا لطهارته.

والقرآن يفرق بين طالب الهدى وطالب الهرب.

طالب الهدى يسأل لينقاد إذا ظهر له الحق.

أما طالب الهرب فيسأل ليؤجل الانقياد كلما اقترب الحق منه.

الأول يقول: دلّني.

والثاني يقول: دعني أبحث أكثر، لا لأنه يريد الوصول، بل لأنه

يخاف الوصول.

وهنا تأتي قسوة الكبر: أنه يجعل الإنسان لا يطلب الدليل ليتبع،

بل يطلب الدليل ليجادله، ثم إذا غلبه الدليل، طلب دليلاً آخر، لا

لقصور الأول، بل لأن المطلوب الحقيقي ليس البرهان، بل المهلة.

ومن هنا نفهم لماذا لم يكن الوليد بحاجة إلى مزيد بيان.

لقد شهد بيانه عليه.

لكن نفسه لم ترد أن تسجد لما شهد به بيانه.

## الفرق بين وضوح الحق وخضوع النفس

هناك فرق كبير بين أن يتضح الحق للإنسان، وأن يخضع الإنسان للحق.

وضوح الحق قضية تتعلق بالدليل.

أما الخضوع له فقضية تتعلق بطهارة النفس.

قد يكون الدليل واضحًا، لكن النفس معتمة.

وقد تكون الحجة قوية، لكن الإرادة ضعيفة.

وقد تكون الآية ساطعة، لكن الإنسان يحب الظلام الذي اعتاده.

ولذلك لا ينبغي أن نظن أن الهداية عملية ذهنية باردة: مقدمة، ثم

نتيجة، ثم إيمان. لو كان الإنسان عقلاً مجردًا فقط لكان الأمر أقرب

إلى ذلك. لكنه عقلٌ في قلب، وقلْبٌ في نفس، ونفسٌ محاطة برغبات

ومخاوف وعادات ومكانة وصورة اجتماعية وذاكرة طويلة من

الانحيازات.

ولهذا يقرر القرآن أن المانع ليس دائماً نقص البيان، بل أحياناً ظلم النفس: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:

## [14]

هذه الآية من مفاتيح هذا الفصل كله.

﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾

اليقين موجود.

لكن ماذا حدث؟

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾

أي إن اللسان والموقف كذّبا ما استيقنته النفس.

ولماذا؟

﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

هنا لبّ القضية.

ليس الجحد دائماً ثمرة جهل، بل قد يكون ثمرة علوّ.

النفس تعلم، لكنها تظلم.

وتدرك، لكنها تستكبر.

وتشهد، لكنها لا تريد أن تنزل من مقامها المتوهم.

وهذه الآية تشرح الوليد، وتشرح فرعون، وتشرح كل إنسانٍ

يرى من الحق ما يكفي ثم يقول بلسانه أو بموقفه: لا.

إنها تفضح ذلك الانفصال المخيف بين اليقين الداخلي و الموقف

الخارجي.

بين ما تعرفه النفس في سرّها، وما تعلنه أمام الناس.

بين لحظة الصدق الأولى، ولحظة الحسابات التالية.

وما أكثر ما يعيش الإنسان هذا الانفصال.

يعرف في داخله أن الآية أصابته، لكنه يتظاهر أنها عامة.

يعرف أن النص يخاطبه، لكنه يحوله إلى مادة لغيره.

يعرف أن عليه أن يتوب، لكنه يؤجل.

يعرف أن عليه أن يترك كبرًا، أو حسدًا، أو تعلقًا، أو معصية، لكنه

يطلب من عقله أن يصنع له أعذارًا.

وهنا يصبح العقل خادماً للهوى بدل أن يكون خادماً للحق.

### الكبر بوصفه عبادةً خفية للذات

الكبر ليس مجرد خلق سيئ، بل قد يكون في عمقه لوناً من ألوان عبادة الذات.

فالمتكبر لا يقول صراحةً: أنا إله نفسي.

لكن سلوكه يقول ذلك بطريقة أخرى.

يرفض أن يُراجع.

يكره أن يُخطأ.

ينفر من أن يكون تابعاً للحق إذا جاءه من غير الطريق الذي يحب.

يشعر أن الاعتراف يخصم من قيمته.

يتعامل مع الرجوع كأنه موتٌ لصورة نفسه.  
وهذا كله يجعل الذات مركزاً يدور حوله كل شيء.

فإن جاء الحق موافقاً لصورة الإنسان عن نفسه قبله.

وإن جاء مهدداً لها قاومه.

وإن جاء من شخص يحبه رَحَّبَ به.

وإن جاء من خصمٍ أو أصغر منه أو أقل مكانةً أَعْرَضَ عنه.

وهنا لا يعود الميزان هو الحق، بل موقع الحق من الأنا.

وهذه عبودية خفية.

لأن العبد الصادق يقول: الحق فوقى، من أي طريق جاء.

أما المتكبر فيقول بلسان الحال: لا أقبل من الحق إلا ما لا يكسر صورتى.

ولهذا كان إبليس أول نموذج قرآني للكبر؛ لا لأنه لم يعرف الأمر،

بل لأنه رفض الانقياد له.

قال الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۚ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾

[الأعراف: 12]

تأمل الجواب.

لم يقل: لم أفهم الأمر.

ولم يقل: لم يبلغني التكليف.

ولم يقل: اشتبه عليّ المعنى.

بل قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾

هنا أصل الكبر كله: أنا.

الأمر الإلهي واضح، لكن الأنا اعترضت.

والتكليف ظاهر، لكن الذات أدخلت نفسها في موضع الحكم.

بدل أن يسأل: ماذا أمر الله؟

سأل: كيف أسجد لمن أرى نفسي خيراً منه؟

وهكذا يتحول الكبر إلى انحراف في مركز السؤال.

السؤال الصحيح: ما أمر الله؟

السؤال المتكبر: ما موقعي أنا في هذا الأمر؟

وهذا هو الداء ذاته، وإن اختلفت الصور.

إبليس لم يمنعه غموض الأمر.

وفرعون لم يمنعه ضعف الآية.

والوليد لم يمنعه قصور البيان.

كثير من المكابرين لا يمنعهم نقص الحق، بل تضخم الذات أمام

الحق. ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المشهور: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ

وَعَمَطُ النَّاسِ»

وهذه العبارة النبوية تكاد تلخص الفصل كله.

بطر الحق: ردّه ودفعه وعدم قبوله.

وعمط الناس: احتقارهم.

أي إن الكبر له جهتان:

جهة إلى الحق: يردّه.

وجهة إلى الخلق: يحتقرهم.

فالوليد رأى من نفسه مقامًا أعلى من أن يتبع محمدًا ﷺ.

لم تكن القضية عنده مجرد نص يسمعه، بل: كيف أتبع رجلًا من بني

هاشم؟ كيف أنزل عن زعامة بني مخزوم؟ كيف أصير تابعًا بعد أن

كنت ممن ينتظر الناس رأيه؟ كيف أقول لقريش: الذي حاربناه حق؟

وهنا دخلت المكانة في صراع مع النجاة.

وانتصرت المكانة في ظاهره، فخسر النجاة في باطنه.

المكانة حين تتحول إلى صنم

من أخطر الأصنام التي لا تُرى: صنم المكانة.

قد لا يسجد الإنسان لحجر، لكنه يسجد لصورة صنعها الناس

عنه.

قد لا يطوف حول صنم، لكنه يطوف حول سمعته.

قد لا يذبح لوثن، لكنه يذبح صدقه حتى لا تسقط هيئته.

قد لا يخاف إلهًا من حجر، لكنه يخاف كلام الناس أكثر مما يخاف

رب الناس.

وهذا هو الشرك الخفي الذي يصيب النفس حين تصبح المكانة  
أثمن من الحق.

كان الوليد رجلاً ذا مال وبنين وجاه، وقد أشار القرآن إلى ذلك:  
﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾

### [المدثر: 12-14]

هذه الأشياء في أصلها نعم.

المال نعمة.

والبنون نعمة.

والتمهيد في الحياة نعمة.

لكن النعمة حين لا تورث شكراً قد تورث استغناءً.

وحين لا تفتح القلب لله قد تغلقه دونه.

وحين لا تجعل صاحبها يقول: هذا فضل ربي، قد تجعله يقول في

باطنه: أنا.

ولذلك قال بعدها: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا

### [المدثر: 15-16]

العناد هنا ليس منفصلاً عن هذا الترف الممهد.

كأن القرآن يكشف أن النعم التي أحاطت به صنعت له إحساساً بالاستحقاق، حتى صار يريد الزيادة من الله، وهو يعاند آيات الله. وهذا من أعجب تناقضات الإنسان:

يعيش من فضل الله، ثم يستعمل فضل الله في مقاومة أمر الله. يتقوى بنعم الله على معصية الله.

يحتمي بما وهبه الله له من مالٍ وجاهٍ ولسانٍ وذكاء، ثم يجعله حجاباً بينه وبين ربه. وهنا تصير النعمة فتنة.

ليس لأنها شرٌّ في ذاتها، بل لأنها كشفت ما في القلب. فالمال لا يفسد كل إنسان، لكنه يكشف قابلية الفساد. والجاه لا يهلك كل أحد، لكنه يفضح من كان في قلبه استعداد لعبادة صورته.

والبنون لا يحجبون بالضرورة، لكنهم قد يتحولون عند بعض النفوس إلى امتدادٍ للكبر لا إلى موضع شكر.

ولهذا كان القرآن يردّ الوليد إلى أصله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾

## [المدثر: 11]

يا لهذه الآية.

كل ضجيج المكانة يسقط أمام كلمة: ﴿وَحِيدًا﴾

أين المال حين خُلقت؟

أين البنون؟

أين المجلس؟

أين الزعامة؟

أين الناس الذين تخشى كلامهم؟

أين القبيلة التي تحتمي بها؟  
لقد بدأت وحيّدًا، وسترجع وحيّدًا، وستقف بين يدي الله وحيّدًا.

فلماذا تبيع النجاة الأبدية بصورة اجتماعية عابرة؟

هذه الآية لا تخاطب الوليد وحده.

إنها تخاطب كل إنسانٍ انتفخ بما أضيف إليه، ونسي أصله.

كل إنسانٍ ظن أن ما حوله منه.

كل إنسانٍ جعل النعمة جدارًا بدل أن تكون سلمًا.

حين يخاف الإنسان من ثمن الإيمان

الإيمان ليس كلمةً رخيصةً إذا فهم الإنسان حقيقتها.

إنه يطلب من صاحبه أن يعيد ترتيب مركز حياته.

أن يجعل الله أولًا.

أن يجعل الحق فوق المصلحة.

أن يجعل الطاعة فوق العادة.

أن يجعل النجاة فوق الصورة.

أن يجعل رضى الله فوق رضى الناس.  
وهذا ثمن تقيل على النفس المتكبرة.

فالوليد لم يكن أمام سؤال بسيط: هل الكلام جميل؟

لقد أجاب عن هذا ضمناً.

ولم يكن أمام سؤال: هل هذا من جنس كلام البشر؟

ذائقته نطقت بأنه أعلى.

بل كان أمام سؤال وجودي: إذا كان هذا حقًا، فماذا أفعل بكل ما

أنا عليه؟

ماذا أفعل بزعامة بُنيت في مجتمع يحارب هذا الحق؟

ماذا أفعل بمكانةٍ ستنزّل إن قلت لقومي: لقد صدق محمد؟

ماذا أفعل بصورة الرجل الخبير الذي ينتظر الناس حكمه، إذا

صار هو نفسه تابعًا لما سمع؟

ماذا أفعل بالجاه القديم إذا دعاني الوحي إلى مقام العبودية؟  
وهنا يظهر أن الإيمان لا يهدد الباطل النظري فقط، بل يهدد البنى

النفسية والاجتماعية التي يعيش الإنسان داخلها.

الإيمان يقول للمتكبر: انزل.

ويقول لصاحب الجاه: لست أكبر من الحق.

ويقول لصاحب المال: ما عندك ليس دليل كرامتك المطلقة.

ويقول لصاحب النسب: لا تنجو بأبائك.

ويقول لصاحب الذوق: لا يكفي أن تتذوق، بل اتبع.

ويقول لصاحب العقل: لا تجعل عقلك ذريعة للهرب من ربك.

ومن هنا كان الكبر يرفض الإيمان لا لأنه لم يعرف جماله، بل لأنه عرف مطالبه.

وهذه نقطة عميقة:

بعض الناس لا يرفضون الحق لأنهم لم يروه جميلًا، بل لأنهم رأوه جادًا.

رأوه يطلب تغييرًا حقيقيًا.

رأوه لا يقبل أن يبقى في زاوية الإعجاب.

رأوه يمدّ يده إلى عرش الأنا.

الذوق الذي لا ينقذ وحده

إن رهافة الذوق نعمة، لكنها ليست عصمة.

قد يكون الإنسان قادرًا على تمييز الجمال، لكنه غير قادر على

اتباع الحق.

وقد يملك حسًا عاليًا بالنصوص، لكنه ضعيف أمام نفسه.

وقد يبكي عند آية، ثم لا يغيّر الموقف الذي طلبت الآية تغييره.

وقد يتكلم عن القرآن كلامًا عظيمًا، ثم يظل القرآن في حياته خارج موضع الحكم.

وهذا خطر خاص بأهل البيان والثقافة والذوق.

فالإنسان المتذوق قد يُفتن بتذوقه.

قد يظن أن إدراك الجمال مقامٌ كافٍ.

قد يجعل القرآن مادةً للشرح، لا سلطةً للتغيير.

قد يتعامل مع الآيات كما يتعامل مع النصوص الكبرى: يحلل،

ويقارن، ويستخرج، ويصف، ثم لا يسأل نفسه: ماذا تريد الآية

مني الآن؟  
وهنا يصبح الذوق حجابًا رقيقًا.

ليس حجابًا قبيحًا كحجاب الجهل، بل حجابًا جميلًا؛ ولذلك هو

أخطر.

لأنه يسمح للإنسان أن يبقى قريبًا من القرآن في الكلام، بعيدًا عنه

في الامتثال.

يسمح له أن يقول كلامًا رائعًا عن النور، وهو لا يزال يحتفظ

بظلمته الخاصة.

يسمح له أن يكون شاهداً على جمال الوحي، لا عبداً منقاداً له.

وقد كان الوليد في لحظةٍ من اللحظات نموذجاً لهذا الخطر:

ذوقٌ شهيد.

وقلبٌ لم يسلم.

ولسانٌ وصف.

ونفسٌ كابت.  
ولذلك ينبغي أن نقولها بوضوح:

ليست النجاة أن تعرف أن القرآن عظيم.

النجاة أن تجعل عظمته حكمةً عليك.

ليست النجاة أن تقول: إنه يعلو وما يُعلَى عليه.

النجاة أن لا تجعل شيئاً في حياتك يعلو عليه.

ليست النجاة أن ترى أن له حلاوة وطلاوة.

النجاة أن تذوق حلاوة التسليم له.

## حين يصبح العلم حجةً على صاحبه

من أشد ما يخيف في قصة الوليد أن معرفته لم تنفعه؛ بل صارت جزءاً من الحجة عليه.

وهذا قانون قرآني عظيم: أن العلم إذا لم يتحول إلى خشية، صار عبئاً.

وأن البصيرة إذا لم تقد إلى التوبة، صارت انكشافاً.

وأن الإنسان إذا عرف ثم أعرض، لم يعد كما كان قبل المعرفة. فالذي لم يعلم بعد ينتظر البيان.

أما الذي علم ثم أعرض، فقد صار البيان شاهداً عليه.

ولهذا كان القرآن يفرّق بين الجهل البسيط والعناد بعد العلم.

العناد بعد العلم أقسى، لأنه ليس ظلمةً محضة، بل رفض للنور بعد حضوره.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: 89]

تأمل: ﴿مَا عَرَفُوا﴾

المأساة أنهم كفروا بما عرفوا، لا بما جهلوا.

وهذه هي الفاجعة:

أن المعرفة قد لا تكون جسراً إلى النجاة إذا دخلت على قلبٍ

مريض.

بل قد تصير المعرفة نفسها مادة للمكابرة.

يصير الإنسان أكثر قدرةً على الجدل.

أكثر براعةً في التبرير.

أكثر تمكناً من صناعة المخارج اللفظية.

أكثر مهارةً في جعل الهروب التلطيفي المتكبر أحياناً أبعد عن الحق من الجاهل

البسيط؛ لأن الجاهل قد ينكسر إذا بان له، أما المتكبر المتعلم فيملك

أدوات كثيرة ليمنع نفسه من الانكسار.

وقد رأينا هذا في الوليد:

لم يكن عجزه في التعبير.

بل كانت خطورته في التعبير.

لأنه بعد أن شهد للقرآن بجماله وعلوه، استطاع أن يصنع تهمةً لها

وقع اجتماعي: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾

هذه ليست عبارة جاهلٍ مرتبكٍ فقط.

إنها عبارة رجل يعرف أثر الكلمة في الناس، فاختار كلمةً تخيفهم

من الأثر بدل أن تدعوهم إلى فهمه.

وهنا يصير البيان نفسه — إن لم يتطهر — أداة تضليل.

فاللسان الذي كان يمكن أن يشهد للحق صار يخدم الكبر.

والذوق الذي كان يمكن أن يفتح باب الإيمان صار حجة على

صاحبه.

والذكاء الذي كان يمكن أن يقوده إلى النجاة صار آلةً لصناعة

الهلاك.

القرآن يكشف موضع المرض

لم يكن القرآن حين وصف الوليد يردّ على تهمة فقط، بل كان

يكشف المرض الذي صنع التهمة.

وهذه طريقة القرآن دائماً: لا يعالج العبارة وحدها، بل يدخل إلى

الجذر.

الإنسان يقول كلمة، والقرآن يكشف النفس التي أنتجتها.

الإنسان يرفع شهوة، والقرآن يضيء الهوى المختبئ وراءها.

الإنسان يعلن موقفاً، والقرآن يردّه إلى قلبه الأول.  
ولهذا لم يقل القرآن فقط: كذب حين قال إن القرآن سحر.

بل قال قبلها: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

ثم: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾

ثم: ﴿أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾

كأن القرآن يأخذنا إلى الورشة الداخلية التي صُنعت فيها الكذبة.

لا يتركنا عند الجملة النهائية، بل يرينا كيف وُلدت:

تفكير لا يطلب الحق.

تقدير لا يريد الهداية.

نظرٌ يبحث عن مخرج.

عبوسٌ يكشف التوتر.

إدبارٌ في الاتجاه.

استكبارٌ في النفس.

ثم تهمةٌ على اللسان.

وهذا الترتيب عظيم.

لأنه يقول لنا: لا تنظروا إلى الشبهة وحدها، بل انظروا إلى

القلب الذي يحملها.

فقد تكون العبارة فكرية في ظاهرها، لكنها نفسية في منشأها.

وقد تكون الحجة لغوية في شكلها، لكنها كبريائية في حقيقتها.

وقد يكون الاعتراض على القرآن ليس لأن القرآن غير واضح، بل

لأن القرآن صار واضحًا أكثر مما يحتمل المعتراض.  
ومن هنا فإن إصلاح النفس شرط لفهم الوحي.

ليس لأن القرآن غامض لا يفهمه إلا المطهرون بمعنى خاص،

بل لأن الهوى إذا تمكن جعل الواضح ملتبسًا، وجعل القريب بعيدًا،

وجعل الحجة موضع جدلٍ دائم. النفس المريضة لا تفقد المعلومات

فقط، بل تفسد علاقتها بالمعلومات.

## التواضع بوابة الفهم الحقيقي

إذا كان الكبر حجابًا، فالتواضع هو الباب.

والتواضع ليس أن يحتقر الإنسان نفسه، بل أن يعرف موضعه

أمام الله.

أن يعلم أنه عبد.

وأن الحق أكبر منه.

وأن الرجوع فضيلة لا فضيحة.

وأن الانقياد للحق رفعة لا سقوط.

وأن المتواضع إذا خطئ رحمة لا حق تفرح به، ولو جاء على خلاف هواه.

أما المتكبر فإذا ظهر له الحق تألم، لأنه يشعر أن الحق جاء ليخصمه

لا لمهديه.

وهذا فارق جوهري.

طالب النجاة لا يهتم أن ينتصر على الناس، بل أن ينتصر على باطله.

أما طالب الصورة فيخشى أن يقال: رجع، أخطأ، تبع، خضع. ولهذا كان الصحابة، حين دخل الإيمان قلوبهم، لا يرون في الانقياد نقصًا، بل كرامة. أبو بكر رضي الله عنه لم يحتج أن يحافظ على صورة الزعيم أمام الوحي. عمر رضي الله عنه حين انكسر أمام القرآن لم ير انكساره هزيمة، بل كان بداية عزّة. كثيرون سمعوا، فتغيروا؛ لأنهم لم يجعلوا الكبر حارسًا على باب القلب. الفرق ليس أن القرآن كان أوضح لهؤلاء وأغمض على أولئك. بل أن القلوب اختلفت.

قلبٌ سمع فقال: هذا الحق، وأنا له.

وقلبٌ سمع فقال: هذا الحق، ولكن ماذا سيقول الناس عني إن اتبعته؟

الأول خرج من نفسه إلى الله.

والثاني بقي أسيرًا لنفسه ولو تكلم عن الله.

## من مأساة الوليد إلى محاسبة الذات

ليس المقصود من هذا الفصل أن نُكثر لوم الوليد وحده.  
إن لومه سهل، لكن الانتفاع بقصته أصعب.

فالقُرآن حين يذكر المتكبرين لا يريد منا أن نرفع أصابع الاتهام فقط، بل أن نفتش عن جذور الكبر فينا. قد لا نكون في صورة الوليد، ولا في مقامه، ولا في موقفه من أصل الإيمان، لكن المرض قد يظهر فينا بصور أدق.  
حين نعرف أن الحق في مسألةٍ ما مع غيرنا، ثم نرفض الاعتراف.

حين تصلنا النصيحة فنغضب من الناصح بدل أن نراجع أنفسنا.  
حين نقرأ آيةً تكشف عيبًا فينا، فنبحث عن تطبيقها على الآخرين.  
حين نعلم أن علينا تغييرًا، ثم نؤجل لأن التغيير سيكسر عادةً محببة.  
حين نحب القرآن ما دام يواسينا، ونتهرب منه حين يحاسبنا.  
حين نؤذيكم بظننا أنكم لا تعرفون أنفسنا، لا أن يطهرنا منها.

والخوف كل الخوف أن يعتاد الإنسان هذه الظلال حتى لا يراها.  
فالكبر لا يبدأ دائماً بصورةٍ فاضحة. قد يبدأ بانقباضٍ صغير من  
الاعتراف. بخرجٍ من التراجع. بضيقٍ من النصيحة. برغبةٍ في أن  
نبدو دائماً على صواب. ثم يكبر حتى يصير حجاباً بين الإنسان وبين  
نور الله.  
ولهذا كان من دعاء المؤمن الصادق أن يطهره الله من الكبر  
الخفي قبل الظاهر، ومن العجب، ومن عبادة الصورة، ومن أن يرى  
الحق ثم لا يطيق اتباعه.

### خاتمة الفصل: الهزيمة التي لم تكن في الحجة

لم يُهزم الوليد أمام ضعف حجته؛ بل أمام قوة كبريائه.

فالقرآن لم يقصّر في البيان.

والذائقة لم تعجز عن الإدراك.

والعبارة الأولى شهدت بما يكفي.

لكن النفس، حين جاء وقت الانقياد، تراجعت خلف حصون الجاه  
والمكانة والخوف من الناس. لقد كان الوليد قويًا في البيان، ضعيفًا  
أمام نفسه. قادرًا على تمييز علو القرآن، عاجزًا عن الصعود إليه.  
رأى الثمرة، ولم يمد يده. رأى الماء، ولم يشرب. رأى العلو، واختار  
سفح كبريائه.  
وهذه هي مأساة الإنسان حين ينتصر الكبر على الذوق.

أن يكون الطريق واضحًا، لكن النفس لا تريد أن تسير.  
أن يكون الباب مفتوحًا، لكن الأنا تقف في العتبة.  
أن ينادي النور، لكن الإنسان يخاف أن يخسر امتيازات الظلام.  
أن يشهد للحق، ثم يعيش كأن شهادته لم تكن.  
ومن هنا ندخل إلى الفصل القادم، حيث تتسع الدائرة من الوليد  
إلى الإنسان كله: مأساة العارف الذي لا يتبع.

ذلك الإنسان الذي لا تنقصه الإشارة، بل تنقصه الشجاعة.  
ولا يغيب عنه الطريق، بل يرهقه ثمن السير.  
ولا يعجز عن قول: هذا حق، لكنه يعجز عن قول: وأنا له.

وهنا يصبح السؤال موجعاً:

ما قيمة أن يعرف الإنسان النور، إذا لم يملك قلباً يمشي إليه؟

## الفصل الخامس

### مأساة العارف الذي لا يتبع

حين يصير العلم بابًا للحسرة لا طريقًا للنجاة

ليست أوجع المآسي أن يضلّ الإنسان وهو لا يرى الطريق.

هذه مأساة، نعم؛ لكنها مأساة لها شيء من العذر، وفيها مساحة للانتظار، وربما للرحمة التي تأتيه من حيث لا يحتسب. فالجاهل قد يُعلّم، والغافل قد يُوقظ، والحائر قد يجد من يأخذ بيده إلى الجهة التي لم يكن يعرفها.

لكن المأساة الأشدّ، والأعمق، والأقسى على الروح، هي مأساة

من رأى الطريق ثم لم يمش فيه.

من عرف ثم لم يتبع.

من شهد ثم لم يسلم.

من سمع النداء واضحًا، ثم بقي في مكانه كأن شيئًا لم يكن.

إن العارف الذي لا يتبع ليس محرومًا من النور لأنه لم يصل إليه؛ بل لأنه وصل إليه ثم أدار وجهه عنه. وهذا هو موضع الرهبة في قصته. فالمسألة ليست ظلمةً مطبقة، بل نورٌ مرفوض. ليست غيابًا للحجة، بل خيانة للحجة بعد حضورها. ليست صمتًا من الحق، بل صممًا اختاره الإنسان بعد أن سمع. ومن هنا كان الوليد بن المغيرة نموذجًا شديد الإيلام؛ لأنه لم يقف خارج المشهد بعيدًا، بل اقترب جدًا. اقترب إلى الحد الذي جعل ذائقته تشهد، ولسانه يصف، وعقله يميز، ثم لم يعبر. كأنه وصل إلى شاطئ النجاة، ورأى السفينة، وسمع النداء، ثم عاد إلى الغرق لأنه خاف أن يراه الناس راكبًا مع الذين كان يسخر منهم. وهذا هو جوهر الفصل: ليست المعرفة وحدها نجاة، حتى تتحول إلى انقياد.

قد يعرف الإنسان الحق كما يعرف جهة الشرق والغرب، لكنه

لا يسير.

وقد يقرّ في داخله بصدق الوحي، لكنه لا يجعله حاكمًا على حياته.

وقد تهتز نفسه عند آية، لكنه يعود بعدها إلى عادته القديمة.

وقد يبكي، ثم لا يتوب.

وقد يعترف، ثم لا يغيّر.

وقد يقول: هذا كلام الله، ثم يعامل كلام الله كأنه نصٌّ جميل لا

سلطان له عليه.  
وهنا تتحول المعرفة من نعمة إلى امتحان ثقيل.

لأن ما عرفته ولم تعمل به لا يبقى خارجك؛ يدخل فيك، ثم يشهد عليك.

وما بان لك من الحق ثم خالفته لا يختفي؛ يبقى في باطنك كصوتٍ مؤجل، كجرحٍ صامت، كدليلٍ ينتظر يومًا لا تستطيع فيه المراوغة.  
بين أن تعرف الحق وأن تصير من أهله

هناك فرقٌ بعيد بين أن يعرف الإنسان الحق، وأن يصير من أهله.

المعرفة قد تكون نظرًا.

أما الأهلية فهي تحول.

المعرفة قد تقول: هذا صحيح.

أما الأهلية فتقول: هذا طريقي.

المعرفة قد تقف عند العقل.

أما الأهلية فتنزل إلى الإرادة، وتعيد ترتيب الحب، والخوف،

والاختيار، والسلوك.

ولهذا لا يكتفي القرآن بأن يقرر الحقائق، بل يطلب من الإنسان

موقفًا منها. لا يرضى له أن يكون شاهدًا من بعيد، ولا محلًا باردًا،

ولا متذوقًا يتعامل مع الآيات كما يتعامل مع النصوص الرفيعة.

القرآن لا يخاطب فينا عقل المتفرج فقط، بل يخاطب العبد الذي

سُئِلَ: ماذا صنعت بما علمت؟

ولذلك نجد القرآن يربط العلم بالخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]

فالعلم الذي لا يثمر خشيةً ناقص في أثره، وإن اتسع في معلوماته.

قد يكون صاحبه كثير الحفظ، قوي العبارة، حاضر الاستدلال، لكنه

لم يبلغ بعد لبّ العلم إذا لم يورثه انكسارًا لله، ومراقبةً للنفس، وحذرًا  
من أن يعرف ثم يخون ما عرف.

العلم في ميزان القرآن ليس تراكمًا ذهنيًا فقط، بل تحوّل في هيئة  
القلب أمام الله.

أن تعرف الله، ثم تخشاه.

أن تعرف القرآن، ثم تخضع له.

أن تعرف الآخرة، ثم تستعد لها.

أن تعرف ضعفك، ثم لا تغتر.

أن تعرف من جهة الله، ثم لا تدع عنك الخاشية ثم عطفها قد تصير مادةً  
للغرور.

يعلم الإنسان فينتفخ.

يفهم فيتعالى.

يتكلم عن الحق حتى يظن أنه صار فوق الحاجة إلى أن يُحاسب به.

يشرح الطريق للناس، ثم لا يمشي.

يبصر عيوب الآخرين في ضوء القرآن، ويترك عيبه هو في  
الظل.

وهذه مأساة أخرى من مآسي العارف الذي لا يتبع: أن علمه قد  
يطيل المسافة بينه وبين التوبة، لا لأنه علم في ذاته، بل لأنه دخل  
على نفسٍ لم تتطهر من حب العلو.

حين ينفصل الإدراك عن الإرادة

ليس الإنسان عقلاً وحده.

ولو كان عقلاً مجرداً، لكان كل وضوح يقود إلى اتباع، وكل دليل

ينتهي إلى تسليم، وكل برهانٍ يثمر عملاً.

لكن الإنسان أعمق وأعقد.

فيه عقلٌ يرى.

وفيه قلبٌ يميل.

وفيه نفسٌ تشتتي.

وفيه عادةٌ تشده إلى الوراء.

وفيه خوفٌ من الناس.

وفيه حبٌّ للصورة.

وفيه كبرياء قديم.

وفيه جروحٌ وتجاربٌ ومكاسبٌ ومصالحٌ وأوهام.

ولهذا قد يرى العقل، ثم تعاند الإرادة.

وقد يعرف القلب، ثم تستبدّ النفس.

وقد يتضح الطريق، لكن العادة تشدّ القدمين.

وقد يقول الإنسان في داخله: نعم، هذا حق، ثم يسأل فوراً: لكن ماذا

سأخسر إن اتبعته؟  
وهنا تبدأ المساومة.

الحق يقول له: تعال.

والنفس تقول: تمهّل.

الآية تقول: اخضع.

والأهواء تقول: لا تجعلها الآن.

الضمير يقول: قد بان لك.

والكبر يقول: لا تتراجع أمام الناس.

النور يقول: هذه لحظتك.

والظل يقول: ما زال في العمر متسع.

وفي هذه المساحة بين الإدراك والإرادة تضيع نفوس كثيرة.

لا لأنها لم تعرف، بل لأنها أجلت مقتضى المعرفة.

ولا لأنها لم تتأثر، بل لأنها لم تسمح للأثر أن يتحول إلى قرار.

ولا لأنها لم تسمع، بل لأنها تعاملت مع السماع كحالة عاطفية

عابرة، لا كنداء يستدعي جوابًا.

ولذلك كان من أخطر ما يصيب الإنسان أن يعتاد التأثر بلا تغيير.

يسمع الموعظة فيرقّ، ثم يعود كما كان.

يقرأ الآية فتدمع عينه، ثم لا تترك الآية أثرًا في اختياراته.

يوقظه موقف، ثم ينام مرة أخرى.

يرى آية من آيات الله في نفسه أو في الناس أو في الزمن، ثم

يحولها إلى ذكرى لا إلى توبة.

ومع التكرار، يصبح التأثر نفسه أقل صدقًا.

تتكوّن في النفس مناعة غريبة ضد النداء.

لا لأنها لا تسمعه، بل لأنها سمعته كثيرًا ولم تجبه، حتى صار

السماع مألوفًا، والتأثر سهلًا، والعمل مؤجلًا.

وهذا من أشد صور الخطر.

فالإنسان قد لا يهلك من قسوة مفاجئة، بل من تأجيلات صغيرة

تتراكم حتى تصنع قسوة ناعمة.

العلم الذي لا يجاوز اللسان

من صور مأساة العارف الذي لا يتبع أن يبقى علمه على لسانه.

يتكلم عن الحق ولا يسكنه.

يصف الطريق ولا يمشي فيه.

يحلل أمراض النفس ولا يعالج مرضه.

يتذوق جمال القرآن ولا يجعل القرآن يقود اختياراته.

وهنا يصبح اللسان متقدمًا على القلب بمسافة خطيرة.

والقرآن حذر من هذا الانفصال في مواضع كثيرة، منها قوله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا

عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3]

إنها آية مرعبة لأهل الكلام كلهم.

لأنها لا تذمّ القول في ذاته، بل تذمّ انفصال القول عن الفعل. لا

ترفض البيان، بل ترفض أن يكون البيان بديلاً عن الصدق. لا تمنع

الإنسان من الدعوة إلى الخير، بل تحذّره أن يكتفي بصورة الناطق

بالخير وهو لا يتحول به.

والعبارة شديدة: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾

ليست مسألة صغيرة.

ليست مجرد ضعفٍ عابر.

إنها فجوة يكرهها الله: أن يلبس الإنسان ثوب الحق على لسانه،

بينما تظل نفسه خارجة عن سلطان الحق.

وهذا لا يعني أن الإنسان لا يتكلم حتى يكتمل؛ فلو انتظر الناس الكمال لما تكلم أحد. لكن الخطر أن يرضى الإنسان بالانفصال، وأن يحترف الكلام عن النور دون مجاهدة الظلمة في نفسه، وأن يجعل

الرفعة البيانية غطاءً لفقرٍ عملي.  
كان الوليد نموذجًا شديدًا لهذا الانفصال في صورة أخرى:

قال عن القرآن كلامًا لو تبعه لأنقذه.

لكن القول بقي منفصلاً عن القرار.

شهد اللسان بما لم تقبله النفس.

فصارت الشهادة نفسها إدانة.  
وقد يكون فينا من هذا شيء، وإن اختلف المقام:

حين نمدح القرآن ولا نتحاكم إليه.

حين نتكلم عن التواضع ونرفض أن نُخطأ.

حين نكتب عن الإخلاص ونفتش في السر عن إعجاب الناس.

حين نشرح التوبة ونؤجل توبتنا.

حين نحلل الكبر ونمارسه بأشكال مهذبة.

حين نرى عيوب الوليد في التاريخ، ولا نرى ظلاله في أنفسنا.

## العارف الهارب من نفسه

الإنسان لا يهرب من الحق وحده؛ كثيرًا ما يهرب من نفسه حين يكشفها الحق.

فالقُرآن حين يخاطب الإنسان لا يكتفي بإعطائه معلومات عن الله والكون والمصير، بل يعيده إلى داخله. يجعله يرى ما كان يخبئه عن نفسه: خوفه، كبريائه، حسده، ضعفه، نفاقه الصغير، تعلقه بالناس، عبادته الخفية لصورته، تعلقه بما يفنى، استثقاله لما ينجيه. وهذه المكاشفة ليست سهلة.

كثير من الناس يحبون الحق ما دام يتحدث عن العالم.

فإذا بدأ يتحدث عنهم نفروا.

يحبون الآيات التي تدين الظالمين، حتى تشير إلى ظلمهم الصغير.

ويحبون الآيات التي تكشف المنافقين، حتى تكشف نفاقًا في

دوافعهم.

ويحبون الحديث عن فرعون، حتى يظهر فرعون صغير في

رغبتهم بالسيطرة.

ويحبون نقد الوليد، حتى يكتشفوا في أنفسهم شيئاً من رفض الاعتراف.

وهنا يبدأ الهروب.

قد يهرب الإنسان بالتأويل البعيد.

وقد يهرب بالتسويق.

وقد يهرب بالانشغال بقضايا كبرى حتى لا يواجه عيباً قريباً.

وقد يهرب بتحويل القرآن إلى مادة فكرية مجردة، بدل أن يكون مرآة.

وقد يهرب بأن يجعل كل آية لغيره. في هذا الهروب؛ لأنه يملك أدواته. والعازف الذي لا يتبع بارع في

يعرف كيف يصوغ العذر. يعرف كيف يتكلم بلغة مقنعة. يعرف

كيف يلبس التردد ثوب الحكمة، والضعف ثوب التروي، والخوف

ثوب المصلحة، والكبر ثوب الكرامة.

لكن الله يعلم.

يعلم تلك اللحظة التي بان فيها الحق.

ويعلم ذلك الصوت الداخلي الذي قال لصاحبه: اتبع.

ويعلم كيف جرى دفنه تحت طبقات من التبرير.

ويعلم متى كان السؤال طلباً للهداية، ومتى كان مخرجاً من التبعة.

ولهذا كان من أعظم ما يحتاجه العارف: الصدق مع الله في

نواياه.

أن يقول: يا رب، لا تجعل علمي حجاباً.

ولا تجعل بياني بديلاً عن طاعتي.

ولا تجعل فهمي للحق وسيلةً للعلو على الناس.

واجعل كل ما أعرفه طريقاً إليك، لا شاهداً عليّ. ~~اللحظة التي تختبر فيها الحق كصاحبه~~

كل معرفة حقيقية تأتي معها لحظة اختبار.

قد يسمع الإنسان آية، فيعرف أن عليه أن يغير شيئاً.

قد يقرأ حديثاً، فيدرك أنه المقصود.

قد يسمع نصيحة، فيرى نفسه داخلها.

قد يقع موقف يكشف له عيبه بلا موارد.

في تلك اللحظة، لا يكون الامتحان في الفهم، بل في الاستجابة.

هناك لحظة دقيقة بين النداء الأول وبين التبرير الأول.

لحظة يكون فيها القلب أقرب إلى الصدق من أي وقت.

يعرف، يشعر، يقرّ، يوشك أن يتغير.

ثم تأتي النفس سريعاً بكل حيلها: ليس الآن، الأمر أعقد، الظروف

لا تساعد، الناس لن يفهموا، ستخسر كثيراً، انتظر فرصة أفضل.  
فإن أطاع الإنسان تلك الحيل، فاتته لحظة النور.

وقد تعود، وقد لا تعود بنفس الصفاء.

وهذا معنى ينبغي أن نرتجف له: ليست كل لحظات الوعي

متساوية.

هناك لحظات يفتح الله فيها للإنسان باباً من بصيرة، فإن دخل، اتسع

له الطريق. وإن تراجع، خشي عليه أن يزداد الباب بعداً.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]

هذه الآية تكشف سنة دقيقة.

الزيغ الأول منهم.

ثم كانت العقوبة أن أزيغت قلوبهم.

ليس الأمر أن القلب ينحرف فجأة بلا تاريخ، بل قد يبدأ بانحراف

اختياري صغير: إعراض، تأجيل، كبر، مراوغة. ثم إذا تكرر،

صار عقوبةً داخلية: أن يفقد القلب استقامته، وأن يصير ما كان

واضحًا ملتبسًا، وما كان مؤثرًا باردًا، وما كان قريبًا بعيدًا.

وهذه هي خطورة العارف الذي لا يتبع: أنه لا يبقى واقفًا في

المكان نفسه.

من عرف ثم أعرض، لا يظل كما كان قبل المعرفة.

إما أن تتحول المعرفة إلى خطوة نحو الله، أو تتحول إلى قسوة

إضافية إذا خالفها.

فالحق إذا دخل القلب ولم يُستجب له، لم يخرج بلا أثر.

إما أن يترك نورًا، وإما أن يترك حجة.

إما أن يرفع صاحبه، وإما أن يزيد مسؤوليته.

## حين يعرف الإنسان ثمن الحق فيخافه

كثير من الناس لا يخافون الحق لأنه غامض، بل لأنه واضح.

لا يخافونه لأنه بعيد، بل لأنه اقترَب منهم جدًّا.

لا يخافونه لأنه غير مقنع، بل لأنه صار مقنعًا إلى حد لم يبق معه

إلا التغيير.

والتغيير مكلف.

قد يكلف الإنسان علاقةً اعتادها.

أو عادةً يحبها.

أو مألًّا يأتيه من بابٍ مريب.

أو مكانةً بناها على غير حق.

أو صورةً اجتماعية يحب أن تبقى نقية.

أو اعترافًا بأنه كان مخطئًا.

أو وهنًا قلبًا يمكن شطيق الإنسان أيُّه فيه يكن يحب الحق لذاته، بل كان يحب

الحق حين يزيّن صورته.

أما حين يطالبه الحق بأن يخسر شيئاً من تلك الصورة، يبدأ التردد.

وهذا ما يجعل قصة الوليد حاضرة في كل زمان.

فالوليد خاف على جاهه.

وغيره يخاف على مصلحته.

وآخر يخاف على صورته.

وآخر يخاف على متعته.

وآخر يخاف على انتمائه الاجتماعي.

وأخيراً يخاف أن يخسر نفسه. **والوليد في لحظة:**

الحق يطلب من الإنسان أن يخرج.

والنفس تقول: ابقَ حيث أنت.

وقد قال الله تعالى عن قوم عرفوا صدق الدعوة لكنهم خافوا

تبعاتها: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص:

لم يقولوا هنا: لم يتضح لنا الهدى.

بل قالوا: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى﴾

كأنهم يعرفون أنه هدى، لكنهم يخافون ثمن اتباعه.

وهذه آية كاشفة جداً.

كم من إنسان يقول بلسان حاله: إن أتبع الهدى خسرت كذا.

إن قلت الحق فقدت كذا.

إن تبت تركت كذا.

إن تغيرت ابتعد عني كذا.

إن تواضعت سقطت هيبتى.

إن اعتذرت ظنوا بي ضعفاً.

إن فليختول الله الضالقات المحيكة الدبان ليست فى الهدى، بل فى خوفك على

ما تظن أنه يحميك.

وهنا يظهر معنى التوكّل.

فالتوكّل ليس كلمةً تقال حين يكون الطريق آمناً، بل موقفٌ حين

يكون الحق واضحًا والثمن حاضرًا.

أن تقول: لن أبيع الهدى بالخوف.

لن أقدم صورةً زائلةً على نِجاةٍ باقية.

لن أختار أرضًا أخاف أن أُتخطف منها على ربِّ بيده الأرض

ومن عليهما.

العارف بين الحجة والنعمة

المعرفة نعمة عظيمة.

لكنها نعمة ذات حدّين.

إن أخذت بيدك إلى الله، كانت من أعظم أبواب الرحمة.

وإن جعلتها خلف ظهرك، صارت من أثقل أبواب الحجة عليك.

ولهذا كان أهل الصدق يخافون من العلم أكثر مما يزهو به أهل

الغفلة.

لأنهم يعلمون أن كل باب من الفهم يفتح معه باب من المسؤولية.

وكل آية عرفتها صارت تناديك باسمك.

وكل معنى انكشف لك صار يسألك: ماذا فعلت بي؟

ليست القضية أن تعرف كثيرًا.

القضية أن ينجو بك ما عرفت.

ولذلك كان من دعاء المؤمن أن يسأل الله العلم النافع.

فليس كل علمٍ نافعًا لصاحبه وإن كان صحيحًا في ذاته. قد يكون العلم

صحيحًا، لكن النفس لم تنتفع به. العلم النافع هو الذي يدخل إلى القلب

فيوقظه، وإلى الإرادة فيقويها، وإلى السلوك فيرشده، وإلى الخوف

والرجاء فيزنيهما، وإلى العبودية فيعمقها.

أما العلم الذي يبقى في اللسان وحده، فهو مثل ماءٍ مرٍّ فوق حجرٍ

أملس؛ لامسه ولم يدخل فيه.

وهذا ما نخافه في علاقتنا بالقرآن.

أن نكثر من الحديث عنه، ونقل من التحاكم إليه.

أن نتغنى بإعجازه، ولا نخضع لأوامره.

أن نقرأ بلاغته، وننسى بلاغه.

أن نحلل أثره في الوليد، ولا نسأل عن أثره فينا.

أن نقول: كيف عرف ولم يتبع؟ ثم نعرف نحن في مواضع كثيرة ولا نتبع.

## المسافة بين الإعجاب والاتباع

الإعجاب بالحق ليس هو اتباع الحق.

قد يعجب الإنسان بالقرآن إعجابًا جماليًا.

وقد يعجب بالإسلام كمنظومة فكرية.

وقد يعجب بالسيرة كبطولة تاريخية.

وقد يعجب بالأخلاق الإسلامية كصورة إنسانية رفيعة.

وقد يعجب بالمؤمنين الصادقين.  
لكن الإعجاب يبقى من الخارج ما لم يتحول إلى ولاء وانقياد.

الإعجاب يقول: هذا جميل.

الاتباع يقول: هذا يلزمي.

الإعجاب قد يبقيك في مقعد المشاهد.

الاتباع يخرجك إلى الطريق.

الإعجاب قد يجعلك تتكلم طويلاً.

الاتباع يجعلك تتغير عميقاً.

وهذا هو الفارق بين الوليد ومن آمنوا.

الوليد أعجب، بل تجاوز الإعجاب إلى شهادة بيانية مدهشة،

لكنه لم يتبع.

أما المؤمن الأول، فقد يسمع آيات أقل في التحليل، لكنه يقول بقلبه:

آمنت، ثم يدفع ثمن الكلمة.

وقد لا يملك من عبارات الوصف ما ملكه الوليد، لكنه يملك من

صدق الاستجابة ما لم يملكه الوليد. وهنا يظهر ميزان آخر غير ميزان البلاغة.

ليس الناجي بالضرورة أقدر الناس على وصف النور، بل

أصدقهم في الدخول إليه.

وليس أقرب الناس إلى القرآن من قال فيه أعذب الكلام، بل من

جعله حاكماً على قلبه وسلوكه ومصيره.

وهذا لا يهوّن من شأن البيان، لكنه يضعه في موضعه.

البيان خادم للتسليم، لا بديل عنه.

والذوق باب، لا منزل أخير.

والإعجاب بداية، لا غاية.

حين تتحول الآية إلى مرآة

من أعظم نعم الله على العبد أن يجعل القرآن مرآةً له، لا مجرد

مادةٍ يقرأها.

فالآية حين تكون مرآة، لا تتركك تقرأها من الخارج.

تدخلك فيها.

تضعك أمام نفسك.

تسألك: أين أنت من هذا؟

ماذا فيك من هذا المرض؟

ماذا فيك من هذا النور؟

ماذا فعلت بما علمت؟

أين هربت؟

أين راوغت؟

أين كابرت؟

أين شهدت ثم لم تتبع؟

وهذا النوع من القراءة قد يكون مؤلماً، لكنه شفاء.

فالقُرآن شفاء لا لأنه يربت دائماً على القلب، بل لأنه يفتح الجرح

الذي لابد أن يُفتح حتى يخرج ما فيه. يشفيك أحياناً بأن يوجعك.

ينقذك بأن يكشفك. يرحمك بأن لا يتركك مخدوعاً بنفسك.

ولهذا فإن قراءة قصة الوليد قراءة صحيحة لا ينبغي أن تنتهي

عنده.

ينبغي أن تعود إلينا.

لا لنساوي أنفسنا به في الحكم، فالأحكام إلى الله، والمقامات

تختلف، ولكن لنفهم السنن النفسية التي كشفها القرآن.

من عرف الحق ثم عانده، ففيه من معنى الوليد بقدر عناده.

ومن شهد للنور ثم اختار الظل، ففيه من معنى الوليد بقدر اختياره.

ومن جعل مكانته فوق نجاته، ففيه من معنى الوليد بقدر ما جعل.

ومن خاف الناس أكثر من خوفه من الله، ففيه من الجذر نفسه وإن  
اختلفت الصورة.

هذه هي فائدة القصص: أن تتحول من تاريخ إلى بصيرة.

ومن حكاية عن غيرك إلى سؤال فيك.

ومن إدانة ماضٍ إلى تطهير حاضر.

### النجاة بشجاعة الاتباع

إذا كانت مأساة العارف الذي لا يتبع هي أنه يملك نورًا لا يمشي

به، فإن النجاة تكون في شجاعة الاتباع.

والاتباع شجاعة.

ليس لأنه دائمًا صعب في صورته الخارجية، بل لأنه يطلب من

الإنسان أن يغلب أشياء كثيرة داخله: هواه، كبرياءه، كسله، خوفه،

عادته، رغبته في رضا الناس، حبه للسيطرة، حنينه إلى الظلام

المألوف.

أَنْ تَتَّبِعَ الْحَقَّ يَعْنِي أَنْ تَقُولَ لِنَفْسِكَ: لَسْتُ أَنْتِ الْإِلَهَ.

أَنْ تَقُولَ لَصُورَتِكَ أَمَامَ النَّاسِ: لَنْ أَعْبُدَكَ.

أَنْ تَقُولَ لِعَادَتِكَ: لَنْ تَكُونِي أَقْوَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ.

أَنْ تَقُولَ لَخَوْفِكَ: رَبِّي أَكْبَرُ مِنْكَ.

أَنْ تَقُولَ لَكِبْرِيائِكَ: الْانْكَسَارُ لِلْحَقِّ رَفْعَةٌ.  
وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْهَدَايَةُ لَيْسَتْ مَجْرَدَ اقْتِنَاعٍ، بَلْ تَوْفِيقًا مِنْ اللَّهِ.

فَالْإِنْسَانُ يَحْتَاجُ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُ قَلْبَهُ، وَأَنْ يَعِينَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ  
مِمَّنْ إِذَا عَرَفُوا عَمَلُوا، وَإِذَا سَمِعُوا أَجَابُوا، وَإِذَا ذُكِّرُوا تَذَكَّرُوا، وَإِذَا  
انْكَشَفَ لَهُمُ الطَّرِيقُ سَارُوا فِيهِ.

وَقَدْ وَصَفَ الْقُرْآنُ صِنْفًا آخَرَ مُقَابِلَ صِنْفِ الْمَكَابِرِينَ: ﴿إِنَّمَا كَانَ  
قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51]

هذه هي الكلمة التي تنقذ المعرفة من أن تكون حجة: ﴿سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَا﴾

ليس سمعنا وأعجبنا فقط.

ولا سمعنا وحللنا فقط.

ولا سمعنا وأجلنا فقط.

ولا سمعنا وناقشنا إلى ما لا نهاية.

بل: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

السمع هنا لم يبقَ صوتًا، بل صار طاعة.

والمعرفة لم تبقَ إدراكًا، بل صارت حركة.

والآية لم تبقَ معنى في الذهن، بل صارت سلطانًا في الحياة.

ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

كأن الفلاح ليس لمن سمع أكثر، بل لمن أطاع ما سمع.

وليس لمن عرف أكثر، بل لمن صدق مع ما عرف.

وليس لمن وصف الحق بأجمل عبارة، بل لمن قال للحق: أنا عبدك.

## خاتمة الفصل: أن لا نخون أصدق لحظاتنا

أشد ما في مأساة العارف الذي لا يتبع أنه يخون أصدق لحظاته.

هناك لحظة يعرف فيها الإنسان.

لحظة لا يكون فيها غافلاً.

لحظة ينكشف فيها الغطاء قليلاً.

لحظة يقول فيها قلبه قبل لسانه: هذا حق.

لحظة يشعر فيها أن الله يدعوه، وأن الآية تخصه، وأن الطريق

واضح، وأن كل الأعذار التي يملكها ليست إلا ستاراً رقيقاً.   
فإن تبع تلك اللحظة، كانت بداية حياة جديدة.

وإن خانها، بقيت في داخله شاهداً عليه.

الوليد خان لحظته.

تلك اللحظة التي قال فيها:

إن له لحلاوة.

وإن عليه لطلاوة.

وإنه يعلو وما يُعلَى عليه.

كانت لحظة صدق ذوقي.

لكنها لم تتحول إلى صدق إيماني.

رأى الباب، ولم يدخل.

شمّ رائحة الثمر، ولم يمد يده.

سمع نداء الماء، ولم يشرب.

رأى العلو، وبقي أسير السفح. ليست مجرد شاهد على إعجاز القرآن، بل نذير لكل من عرف شيئاً من الحق ثم سوّف، ولكل من سمع نداء الله ثم أجّل، ولكل من جعل بينه وبين التسليم صنماً من كبرٍ أو خوفٍ أو مصلحةٍ أو صورة.

فالسؤال الذي يخرج به القارئ من هذا الفصل ليس: كيف فعل

الوليد ذلك؟

بل: أين أفعل أنا شيئاً من ذلك؟

أين أعرف ولا أتبع؟

أين أسمع ولا أطيع؟

أين أشهد للنور ثم أبقى في الظل؟

أين أجعل فهمي للحق بديلاً عن خضوعي له؟

أين أتكلم عن القرآن أكثر مما أتحاكم إليه؟

إن النجاة لا تكون بأن نلعن ظلام غيرنا، بل بأن نفتح للنور

مواضع الظلمة فينا.

ولا تكون بأن نرى كبرياء الوليد فقط، بل بأن نكسر ما يشبهه في

أنفسنا.

ولا تكون بأن نقول عن القرآن: إنه يعلو وما يُعلَى عليه، ثم نجعل

فوقه أهواءنا وعاداتنا ومخاوفنا.  
النجاة أن نسمع، ثم نطيع.

أن نعرف، ثم نتبع.

أن نشهد، ثم نسلم.

أن لا نخون أصدق لحظاتنا مع الله.

ومن هنا ننتقل إلى الفصل القادم، حيث يتجاوز القرآن كونه خطاباً

يُسمع إلى كونه مرآة تكشف الإنسان لنفسه:

القرآن الذي يكشف الإنسان لنفسه.

فالوحي لا يفضح الباطل في العالم فقط، بل يفضح الباطل

المختبئ في القلب.

ولا يكتفي بأن يقول للإنسان: هذا هو الحق.

بل يقول له: وهذا أنت أمام الحق.

على بركة الله يا صديقي.

ننتقل الآن إلى الفصل السادس، وهو الفصل الذي يرفع المعنى

من حادثة الوليد إلى قاعدة كبرى:

القرآن لا يكشف الحق للإنسان فقط، بل يكشف الإنسان أمام

الحق.

## الفصل السادس

القرآن الذي يكشف الإنسان لنفسه

حين لا تكون الآية خبرًا فقط، بل مرآة

ليس القرآن كتابًا يُعرّف الإنسان بربه فحسب، بل هو أيضًا كتابٌ

يعرّف الإنسان بنفسه.

وهذه من أعظم حقائقه.

فالإنسان قد يعيش عمرًا طويلاً وهو يظن أنه يعرف نفسه: يعرف

رغباته، ومخاوفه، وطباعه، ومواقفه، وما يحب وما يكره. لكنه في

الحقيقة لا يعرف من نفسه إلا ما سمحت له نفسه أن يراه. أما المناطق

العميقة، تلك التي يختبئ فيها الكبر تحت اسم الكرامة، والهوى تحت

اسم الحرية، والضعف تحت اسم الحكمة، والخوف تحت اسم

المصلحة، فإنها لا تنكشف بسهولة.  
الإنسان بأارع في ستر نفسه عن نفسه.

قد يرى عيوب الناس بوضوح جرح، ثم لا يرى العيب نفسه إذا  
سكن فيه.

وقد يفضح التناقض في خصومه، ثم يسمي تناقضه هو اتزانًا.  
وقد يهاجم الكبر في التاريخ، ثم يمارسه في مجلسٍ صغير حين لا  
يطيق أن يُخطأ.

وقد يتأمل مأساة الوليد بن المغيرة، ثم لا ينتبه إلى أن في داخله  
موضعًا يثني القريض أن ينحني للحق إذا جاء على خلاف هواه.  
لا يأتي ليعطي الإنسان معلوماتٍ جديدة فحسب، بل ليخلع عنه  
أقنعتة.

لا يتركه مختبئًا خلف اللغة التي يزين بها نفسه.  
لا يسمح له أن يبقى متفرجًا على الحق من بعيد.  
بل يقترب منه حتى يمسّ موضع الخداع في قلبه، ثم يقول له:  
انظر، هذا أنت. ولهذا كان القرآن مرآة لا تشبه المرايا.

المرايا العادية تريك وجهك الذي يراه الناس.

أما القرآن فيريك وجهك الذي تخفيه عن الناس، وربما تخفيه عن نفسك.

الآية حين تدخل إلى منطقة السر

كثير من الكلام يلامس ظاهر الإنسان.

يعجبه، يطربه، يقنعه، يثيره، يضيف إلى معلوماته.

لكن القرآن لا يكتفي بذلك.

إنه يدخل إلى منطقة السر؛ إلى المكان الذي تتكون فيه النية قبل

أن تصبح فعلاً، والرغبة قبل أن تصبح قراراً، والكبرياء قبل أن

يظهر في العبارة، والخوف قبل أن يلبس ثوب الحكمة، والهوى قبل

أن يبحث له العقل عن دليل.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ

نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]

هذه الآية لا تخبر الإنسان بعلم الله فقط، بل تهزّ وهمه بأنه يملك

منطقةً مغلقة لا يصل إليها النور.

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾

ليست الأفعال وحدها معلومة.

وليست الأقوال وحدها مسجلة.

بل حتى تلك الحركات الخفية التي لم تخرج بعد، تلك الهمسات الداخلية، تلك البدايات الدقيقة للكبر، تلك الرغبات التي نخجل أن

نعترف بها، كلها في علم الله.  
ثم: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

ما أرهب هذا القرب.

ليس قربًا مكانيًا، بل قرب علمٍ وإحاطةٍ وسلطان.

إنه يعني أن الإنسان ليس غائبًا عن الله حتى حين يغيب عن نفسه.

وأنه لا يستطيع أن يبني في داخله غرفةً سريةً يمنع الوحي من

الدخول إليها.

وأن القرآن حين يخاطبه، لا يخاطب كائنًا مجهولًا، بل يخاطب

مخلوقًا مكشوفًا لخالقه، معلوم الجذور والدوافع، معروف المداخل

والمخارج.

ومن هنا تأتي قوة القرآن في كشف النفس.

لأنه ليس كلام إنسانٍ يحاول تحليل الإنسان من الخارج، بل كلام من خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه. ولذلك حين يصف القرآن الكبر، أو النفاق، أو الضعف، أو الخوف، أو حب الدنيا، أو العناد، فإن وصفه لا يكون تخمينًا نفسيًا، بل كشفًا من العليم الخبير. القرآن لا يصف المرض فقط، بل يكشف موضعه

قد يصف الإنسان المرض من الخارج، فيقول: هذا كبر، وهذا حسد، وهذا نفاق، وهذا ضعف.

لكن القرآن يفعل شيئًا أعمق: يكشف كيف يتشكل المرض في الداخل، وكيف يبرر نفسه، وكيف يلبس ثوبًا غير ثوبه، وكيف يتسلل إلى الموقف قبل أن يظهر على اللسان.

انظر كيف كشف القرآن موقف الوليد: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقُتِلَ ۖ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ

ثُمَّ أَدْبَرَ ۖ وَاسْتَكْبَرَ ۖ﴾ [المدثر: 18-23]

هذه ليست مجرد آيات تُخبر أنه كفر.

إنها مشهد داخلي كامل.

ترى التفكير.

وترى التقدير.

وترى النظر.

وترى العبوس.

وترى الإدبار.

وترى الاستكبار. كان القرآن يفتح لنا النفس لحظة صناعة الموقف. لا يكتفي بالحكم

النهائي، بل يرينا الطريق الذي مشى فيه القلب حتى وصل إلى

الكلمة الباطلة.

وهنا عظمة التشخيص القرآني.

فالقرآن لا يقول لنا فقط: احذروا الكبر.

بل يرينا الكبر وهو يعمل.

كيف يفكر.

كيف يقدر.

كيف يختار العبارة.

كيف يتوتر الوجه حين يخالف اللسان ما عرفه الباطن.

كيف يتحول الإدراك إلى إدبار حين تتدخل الأنا.

كيف تنتهي شهادة الذوق إلى تهمة اللسان.  
وهذا يجعل الآيات مرآة لكل نفسٍ يمكن أن تصنع الموقف نفسه

بطرق أخرى.

ربما لا تقول: إن هذا إلا سحر يؤثر.

لكنها قد تقول: النص لا يقصدني.

أو: الظروف لا تسمح.

أو: أنا لست مخطئًا تمامًا.

أو: لا أستطيع أن أراجع الآن.

أو: لو اعترفت ضاعت هيبتني.

أو: سأصلح لاحقًا.

العبارات تختلف، لكن الورشة الداخلية قد تكون واحدة:  
حقُّ ظهر، ونفسٌ خافت ثمنه، وعقلٌ استُدعي لا ليقود إلى النجاة،  
بل ليصنع التبرير.

### القرآن يفرِّق بين الإنسان وصورته عن نفسه

من أشد ما يفعله القرآن أنه يفصل بين الإنسان الحقيقي والصورة  
التي صنعها لنفسه.

فالإنسان يحب صورته.

يحب أن يعتقد أنه صادق، عادل، منصف، متواضع، طالب حق،

حسن النية. وربما يكون فيه من ذلك شيء، لكن النفس لا تكتفي بما

فيها من خير؛ إنها تحب أن تخفي ما فيها من نقص.

ثم تأتي الآية، فتسأل الإنسان سؤالاً لا يستطيع الهروب منه:

هل أنت كذلك حقًا؟

هل تريد الحق، أم تريد أن ينتصر موقفك؟

هل تبحث عن الله، أم تبحث عن صورة جميلة لنفسك أمام الناس؟

هل تخاف الذنب، أم تخاف أن يراك الناس مذنبًا؟

هل تحب التواضع، أم تحب أن يمدحك الناس بأنك متواضع؟

وهذا النوع من الأسئلة لا يطرحه القرآن دائمًا بصيغة السؤال

المباشر، بل يطرحه عبر الكشف.

مثل قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ

مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: 14-15]

يا لها من آية.

﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾

في أعماقه يعرف.

يعرف الموضع الذي كذب فيه.

يعرف متى كان اعتذاره صادقًا ومتى كان حيلة.

يعرف متى كان سؤاله طلبًا للحق ومتى كان هروبًا من الحق.

يعرف متى كان الصمت حكمة ومتى كان جبنًا.

يعرف متى كان الغضب لله ومتى كان لنفسه.

يعرف متى كان امتناعه عزةً ومتى كان كبرًا.

ثم: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾

أي ولو أبدى الحجج، ورتب المبررات، وزخرف الكلام، وشرح الظروف، وذكر الملابسات.

الإنسان يعرف من نفسه ما يحاول أن يخفيه بخطابه.

وهذه الآية تجرّده من مكر اللغة.

تقول له: قد تستطيع أن تقنع الناس، وربما تقنع نفسك مؤقتًا، لكن

فيك موضعًا يعلم. هناك بصيرة داخلية تشهد عليك، حتى وأنت

تلقى معاذيرك.

وهذا هو القرآن حين يكشف الإنسان لنفسه.

إنه لا يسمح للمعاذير أن تكون ستارًا أبدًا.

يفتح شقًا في جدار التبرير، ليرى الإنسان ما وراءه.

ليس كل من يسمع يستقبل

القرآن يفرّق بين وصول الصوت ووصول الخطاب.

قد تصل الآية إلى الأذن، ولا تصل إلى القلب.

وقد تصل إلى العقل، ولا تصل إلى الإرادة.

وقد يفهم الإنسان معناها، ولا يسمح لها أن تحكمه.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي

فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]

العمى الحقيقي ليس أن لا يرى الإنسان الطريق بعينه، بل أن يفقد

القلب قابلية الاهتداء.

قد تكون العين سليمة، والذكاء حاضرًا، واللغة مفهومة، والدليل

ظاهرًا، لكن القلب أعمى؛ لأنه لا يريد أن يرى إلا ما يخدم هواه،

ولا يقبل من الحقيقة إلا ما لا يكسر مركزه.

وهذا العمى أخطر من عمى البصر؛ لأن صاحبه قد يظن نفسه

مبصرًا.

بل قد يرى أشياء كثيرة، ويحلل أشياء كثيرة، ويفهم أشياء كثيرة،

لكنه لا يرى موضعه هو من الحق.

وهذه كانت علة الوليد.

لم يكن أعمى الذوق.

ولم يكن أعمى اللغة.

ولم يكن أعمى الخبرة بالكلام.

لكنه عمي عند موضع التسليم.

رأى عظمة القرآن، لكنه لم يرَ قبح كبره.

أدرك علو النص، لكنه لم يدرك سقوطه حين رفض العلو.

شهد للنور، لكنه لم يرَ أن بقاءه خارجه ظلمة.

وهذا هو العمى القلبي في أدق صوره:

أن ترى الحق، ولا ترى حاجتك إلى الخضوع له.

## القرآن يمتحن لا معلوماتنا فقط، بل صدقنا

لو كان القرآن كتاب معلومات فقط، لكان القارئ الجيد هو من يحفظ أكثر، ويفسر أكثر، ويستخرج أكثر.

لكن القرآن كتاب هداية.

ومن ثم فهو يمتحن صدق المتلقي، لا ذاكرته وحدها.

قد تقرأ آية عن التوكل، فيسألك القرآن: ما الذي تخافه أكثر من

الله؟

وقد تقرأ آية عن الصدق، فيسألك: أين كذبت على نفسك؟

وقد تقرأ آية عن الكبر، فيسألك: من الذي لا تطيق أن تسمع الحق

منه؟

وقد تقرأ آية عن الآخرة، فيسألك: لماذا تعيش كأن الدنيا هي القرار؟

وقد تقرأ آية عن المنافقين، فيسألك: أين يتخلف عملك عن قولك؟

وقد تقرأ آية يعود القارئ فيمتحنك أفي الشهادتين ثم كما يبرئ النص حاكمًا

عليه.

وهذا هو الفرق بين قراءة القرآن وقراءة كثير من الكتب.  
في الكتب الأخرى، قد تظل أنت القارئ الذي يقيم النص.  
أما في القرآن، فإنك مهما قرأته، ستكتشف أنه هو الذي يقرؤك.  
أنت تظن أنك تفتح المصحف، فإذا بالمصحف يفتحك.  
تظن أنك تنظر في الآية، فإذا بالآية تنظر فيك.  
تظن أنك تسأل عن المعنى، فإذا بالمعنى يسألك عن موقفك منه.  
وهذه من أعظم رهبة القرآن.

### الآية التي لا تترك الإنسان محايدًا

القرآن لا يحب الحياد الكاذب.  
هناك حيادٌ جميل حين يكون الإنسان باحثًا عن الحق، لم يتضح له  
بعد، فيتأني ويتحرى ولا يستعجل. هذا مقام محمود إذا كان صادقًا.  
لكن هناك حيادًا آخر، ليس طلبًا للحق، بل هروبًا من التبعة.  
حياد من عرف ما يكفي، لكنه لا يريد أن يعلن موقفه.

حياد من يقف على مسافة آمنة من النداء حتى لا يطالبه بشيء.

حياد من يقول: أنا متأمل فقط، بينما الآية تطلب منه أن يكون عبداً.

والقرآن يخرج الإنسان من هذا الحياد الزائف.

حين يقول الله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: 26]

فإنها ليست مجرد استفهام، بل ملاحظة.

إلى أين تمضي بعيداً عن هذا النور؟

إلى أي عذر؟

إلى أي طريق؟

إلى أي ظل؟

إلى أي كبرياء؟

إلى أي عادة؟

إلى أي مصلحة؟

إلى ثلثي يقولورة ﴿إِن تَخُفُوا لِلَّهِ ذِكْرًا فَلْيَاخُفُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ۞ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿

[التكوير: 27-28]

هنا يظهر أن القرآن ذكر، لكنه لا ينتفع به إلا من شاء الاستقامة.

ليس من شاء الثقافة فقط.

ولا من شاء البلاغة فقط.

ولا من شاء الإعجاب فقط.

بل: ﴿أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾  
أي أن يقبل أن يتغير اتجاهه كله.

فالقرآن لا يريد أن يضاف إلى زينة الوعي، بل أن يصحح

المسار.

لا يريد أن يكون نصًّا في مكتبتك، بل نورًا في طريقك.

لا يريد أن يضيف إلى لسانك عبارة، بل إلى حياتك استقامة.

## حين يفضح القرآن عبادة الظلال

من أعظم ما يكشفه القرآن أن الإنسان قد يعبد أشياء لا يسميها  
آلهة.

قد يعبد هواه.

وقد يعبد مكانته.

وقد يعبد عاداته.

وقد يعبد صورته أمام الناس.

وقد يعبد خوفه.

وقد يعبد رغبة صغيرة، لكنها تتحكم في قراراته كما يتحكم

المعول في قلابه تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: 23]

هذه آية تكشف الوثنية الداخلية.

ليس الإله هنا حجرًا منصوبًا، بل هوى متبع.

شيءٌ داخل النفس يتحول إلى مرجع أعلى.

إذا وافقه الحق قبله، وإذا خالفه رفضه.

إذا خدمه الدليل احتفى به، وإذا هدمه الدليل تهرب منه.

وهذا هو جوهر عبادة الهوى: أن لا يكون الحق هو السيد، بل الرغبة.

وليد بن المغيرة لم يكن مشكلته أنه لم يذق سلطان القرآن، بل أن هناك إلهًا خفيًا داخل النفس كان ينازعه: إله الجاه، إله الزعامة، إله الصورة الاجتماعية، إله الأنا.

وحين تعارض الوحي مع هذا الإله الخفي، اختار ما اعتاد عبادته.

وهذا المعنى ينبغي أن يرعبنا.

فقد لا يكون الإنسان مشرّكًا بحجر، لكنه قد يجعل في داخله شيئًا يزاحم أمر الله.

إذا قال الله شيئًا، قال الهوى شيئًا آخر.

فإن قدّم الهوى، فقد أعطاه من الطاعة ما لا يستحق.

وهذه هي عبادة الظلال: أن يخضع الإنسان لما يفنى، ويترك ما يبقى.

والقرآن يكشف هذه العبوديات الخفية لا ليفضح الإنسان فقط، بل لينقذه.

لأنه لا يمكن أن يتحرر من صنم لا يراه.

ولا يمكن أن يكسر قيّدًا يظنه زينة.

ولا يمكن أن يتوب من عبادةٍ يسميها ذوقًا أو حريةً أو كرامةً أو

مصلحة. القرآن يرد الإنسان إلى حقيقته الأولى

من طرق القرآن في كشف الإنسان أنه يردّه إلى أصله.

فالإنسان ينتفخ بما أضيف إليه: مال، علم، منصب، جمال، نسب،

شهرة، تأثير، أتباع، قدرة على الكلام. ثم ينسى أن كل هذه الأشياء

عوارض. لم يولد بها، ولن يخرج من الدنيا بها، ولن تقف معه في

قبره إلا بقدر ما سخرها لله.

ولهذا جاء الخطاب في سورة المدثر: ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾

## [المدثر: 11]

هذه الآية تهدم مسرح الوهم كله.

﴿وَحِيدًا﴾

كلمة واحدة تعيد الإنسان إلى حجمه الأول.

قبل التصفيق.

قبل المال.

قبل الأبناء.

قبل اللقب.

قبل المجلس.

قبل الهيبة.

قبل كالأولاد الذي يخاف عليه.

ثم أُعطي ما أُعطي، فظن أن العطاء جعله أكبر من أن يخضع للمعطي.

وهنا يبدأ الخلل.

القرآن يذكره:

أنت لست مالكا أصليا لما تفاخر به.

أنت مؤتمن.

كل ما حولك كان بعد أن لم تكن.

وكل ما تعثر به قد يصبح حجابا إن لم يتحول إلى شكر. وهذه ليست عظة عامة فقط، بل ضربة في مركز الكبر.

لأن المتكبر يعيش من نسيان أصله.

يحتاج أن ينسى ضعفه الأول حتى يصدق علوه الوهمي.

ويحتاج أن ينسى وحدته الأولى حتى يستقوي بما حوله.

ويحتاج أن ينسى أنه مخلوق حتى يتعامل مع الحق كأنه ندّ. فيأتي القرآن فيقول: وحيداً.

وهذه الكلمة، لو دخلت القلب حقاً، لكسرت كثيراً من أوهامه.

## بين القرآن والنفس: معركة الكشف

ليست النفس سهلة القيادة.

فإذا جاء القرآن ليكشفها، قاومت.

قد تقاوم بالانشغال.

تقرأ الآية، فتفتح بابًا آخر في ذهنك حتى لا تتركها تكمل طريقها.

وقد تقاوم بالتعميم.

تقول: هذه الآية عن الناس جميعًا، كي لا تسأل: أين أنا منها؟

وقد تقاوم بالتأجيل.

تقول: سأعود إليها لاحقًا.

وقد تقاوم بالمقارنة.

تقول: غيري أسوأ مني.

وقد تقاوم بالتحليل البارد.

تظل تشرح الآية شرحًا حسنًا، لكن دون أن تسمح لها أن تمسك

بعيبك.

وهذا من مكر النفس: أنها قد تستعمل العلم بالقرآن وسيلةً للفرار

من سلطان القرآن.

تقرأ لتفهم، وهذا خير.

لكن الفهم إن لم يقد إلى خضوع، فقد يتحول إلى حجاب.

تفسر، وتقارن، وتستخرج اللطائف، وتبني العبارات الجميلة، ثم

يبقى الموضوع الذي أرادت الآية أن تغيّره فيك كما هو.

ولهذا يحتاج القارئ إلى أدبٍ عظيم مع القرآن:

أن لا يسأل فقط: ماذا تعني الآية؟

بل يسأل أيضًا: ماذا تريد مني؟

أين موضعها في قلبي؟

ما المرض الذي تكشفه؟

ما الباب الذي تفتحه؟

ما العذر الذي تهدمه؟

ما الأمر الذي تؤجله نفسي وتدعوني إليه الآية الآن؟

بهذا يصبح القرآن هداية لا مادة.

نورًا لا موضوعًا.

حاكمًا لا محكومًا عليه.

القرآن لا يفضح ليهلك، بل ليشفي

قد يخاف الإنسان من أن ينكشف أمام القرآن.

وهذا خوف مفهوم؛ لأن رؤية النفس كما هي مؤلمة.

لكن القرآن لا يكشف الإنسان ليكسره كسر اليأس، بل ليكسره كسر

الرحمة.

لا يفضحه ليطرده، بل ليخرجه من الوهم الذي يهلكه.

لا يريه مرضه ليعيره به، بل ليبدأ الشفاء.

وهذا من جمال القرآن: أنه يجمع بين الكشف والرحمة.

حين يقول: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن

رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53]

فهو يسمي الإسراف إسرافًا، لا يجمله ولا يخففه.

لكنه في اللحظة نفسها يفتح باب الرحمة.

﴿لَا تَقْنَطُوا﴾

أي لا تجعلوا رؤية ذنوبكم طريقًا إلى اليأس، بل طريقًا إلى الرجوع.

فالقُرآن لا يريد من الإنسان أن ينكر مرضه، ولا أن يغرق فيه. يريد منه أن يراه، ثم يأتي به إلى الله. وهذا هو الفرق بين الفضيحة والهداية.

الفضيحة تكشفك لتسقطك.

أما الهداية فتكشفك لتنهضك.

والقرآن حين كشف الوليد، كان ذلك عدلًا في حق من عاند واستكبر.

لكنه حين يكشف المؤمن لنفسه في الدنيا، فإنما يفتح له باب النجاة قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه المعاذير.

فما أرحم أن ترى عيبك الآن.

وما أرحم أن تُكسر صورتك قبل أن تتحول إلى صنم.

وما أرحم أن يفضح القرآن كبرياءً صغيراً فيك قبل أن يكبر حتى

يحجبك عن الله.

وما أرحم أن تبكي تحت آية في الدنيا، بدل أن تندم تحت حساب

الآخرة.

الإنسان أمام القرآن: ثلاثة مقامات

يمكن أن نقول إن الناس أمام كشف القرآن على ثلاثة مقامات:

الأول: من يهرب من المرأة

هذا لا يريد أن يرى نفسه.

إذا واجهته الآية أعرض.

إذا كشفت عيبه غضب.

إذا سمع الحق بحث عن خطأ في الناصح، أو غموض في النص،

أو عذر في الظروف.

هذا يخاف المرأة لأنه يحب صورته أكثر من حقيقته.

وهذا مقام خطر؛ لأن من لا يريد أن يرى، لا يمكن علاجه بسهولة.

### الثاني: من يرى ثم يبرر

وهذا أخطر من الأول أحياناً؛ لأنه رأى، لكنه بدأ يصنع المعاذير.

يعرف أن الآية أصابته، لكنه يخفف وقعها.

يعرف أن عليه تغييراً، لكنه يؤجله.

يعرف أن في قلبه كبراً، لكنه يسميه عزة.

يعرف أن فيه تعلقاً بالدنيا، لكنه يسميه تدبيراً.

يعرف أن في موقفه هوى، لكنه يسميه اجتهاداً.

هذا مقام الوليد في صورته الكبرى: بصيرة لحظية، ثم تبرير، ثم إدبار.

### الثالث: من يرى فينقاد

وهذا هو مقام النجاة.

حين تكشفه الآية لا يغضب من النور، بل يشكر الله أنه أراه

موضع الظلمة.

وحين يعرف عيبه لا يشتغل بتجميل نفسه، بل بإصلاحها.

وحين يدرك الحق لا يسأل أولاً: كيف أحفظ صورتني؟ بل يسأل:

كيف أنجو؟

هذا هو الذي ينتفع بالقرآن.

ليس لأنه بلا عيب، بل لأنه لا يحمي عيبه من القرآن.

وليس لأنه كامل، بل لأنه صادق في طلب الكمال.

وليس لأنه لا يسقط، بل لأنه إذا سقط لم يحول السقوط إلى مذهب.

## القرآن وخلع الأقنعة

حين يتعامل الإنسان مع القرآن بصدق، يبدأ خلع الأقنعة.

قناع المتدين الذي يحسن الكلام عن الله لكنه ضعيف الخلوة.

قناع المثقف الذي يحلل كل شيء ولا يسمح للحق أن يحلله هو.

قناع الداعية الذي يخاف على صورته أكثر مما يخاف على قلبه.

قناع القوي الذي يخفي هشاشته بالتعالي.

قناع الحكيم الذي يخفي جبنه باسم التروي.

قناع المنصف الذي لا ينصف إلا حين لا يكون الحق عليه.

قناع القارئ الواضح الذي ينتظر الأقنعة والناسد أنوايلها ليدخلوا تواضعه.

لا لأنه ضد جمال الإنسان، بل لأنه يريد له جمالاً حقيقياً لا جمالاً

مصنوعاً.

يريد له وجهًا يلقي الله به، لا قناعاً يلقي الناس به.

ولهذا كان الصادقون يخافون القرآن ويحبونه في الوقت نفسه.

يخافونه لأنه يكشفهم.

ويحبونه لأنه لا يكشفهم إلا لينجيهم.

يخافونه لأنه لا يجامل أمراضهم.

ويحبونه لأنه لا يتركهم لأمراضهم.

يخافونه لأنه يهدم ما بنوه من أوهام.

ويحبونه لأنه يبني فيهم ما لا ينهدم **القرآن** شاهدًا لك أو عليك

في النهاية، القرآن لا يبقى محايدًا في حياة الإنسان.

إما أن يكون شاهدًا له، أو شاهدًا عليه.

إما أن يقول: يا رب، هذا عبدٌ سمع فاتبع.

أو يقول: يا رب، هذا عبدٌ سمع فأعرض.

والفرق بين الحالتين ليس في وصول القرآن، بل في موقف

الإنسان من وصوله.

وقد ورد في المعنى المشهور: «والقرآن حجة لك أو عليك»

وهذه الجملة تختصر رهبة العلاقة بالوحي.

فكل آية عرفتها دخلت في حسابك.

كل معنى بان لك صار أمانة.

كل موضع هزّك ثم أعرضت عنه صار شاهداً.

كل باب فتحه الله لك ثم أغلقته بيدك سيعود يسألك: لماذا؟  
لكن في المقابل:

كل آية اتبعتها سترفعك.

كل معنى عملت به سيزكيك.

كل مرة كسرت فيها كبرك للحق ستشهد لك.

كل مرة قلت فيها: سمعنا وأطعنا، ولو كان ذلك صعباً على نفسك،

ستجدها نوراً يوم تحتاج النور. الوليد والمؤمن الصادق.

الوليد جعل القرآن شاهداً عليه؛ لأنه عرف ثم عاند.

أما المؤمن فيجعل القرآن شاهداً له؛ لأنه كلما كشفه عاد، وكلما ناداه

أجاب، وكلما كسر فيه وهماً شكر، وكلما أراه عيباً تاب.

## خاتمة الفصل: أن تقرأ القرآن فيقرأك

إذا أردنا أن نفهم علاقة الإنسان بالقرآن، فعلينا أن نخرج من

الوهم السهل: وهم أننا نحن وحدنا الذين نقرأ القرآن.

الحقيقة الأعمق أن القرآن يقرأنا.

يقرأ خوفنا.

ويقرأ كبرنا.

ويقرأ معاذيرنا.

ويقرأ مواضع الصدق فينا.

ويقرأ الأماكن التي لم يدخلها النور بعد.

ويقرأ الأصنام الصغيرة التي خبأناها تحت أسماء جميلة. ومن هنا كان القرآن أعظم من أن يكون موضوع إعجاب فقط.

إنه مرآة، وميزان، ونور، وشفاء، وفرقان، وحجة.

من وقف أمامه صادقاً رآه يهدم فيه ما ينبغي أن يُهدم، ويبني فيه

ما ينبغي أن يُبنى.

ومن وقف أمامه متكبراً رآه يعلو عليه، ويحطم ما تحته، ويكشف  
ضآلة كل ما احتوى به.

وهذا هو الدرس الكبير من قصة الوليد:

لم يكن القرآن بحاجة إلى شهادة الوليد، لكن الوليد كان بحاجة  
إلى أن يسمح للقرآن أن يكشفه وينقذه.  
غير أنه رضي أن يراه بعين الذوق، ولم يرضَ أن يراه بعين  
العبودية.

سمح له أن يدهشه، ولم يسمح له أن يغيره.  
تركه يصل إلى منطقة الإعجاب، ومنعه من دخول منطقة التسليم.  
وهنا مأساة كل من يقرأ القرآن من بعيد.

يعجب، ولا ينقاد.

يفهم، ولا يتغير.

يتأثر، ولا يتوب.

يشهد، ولا يسلم.

أما من أراد النجاة، فليقرأ القرآن كما يقرأ عبْدُ رسالة سيده،  
ومريضٌ وصفة شفاؤه، وغريبٌ خريطة رجوعه، وخائفٌ كتاب  
أمانه، ومذنبٌ باب رحمة ربه.

وليقل كلما كشفت الآية موضعاً فيه:

يا رب، هذا أنا، وقد رأيتني قبل أن أرى نفسي.  
فلا تجعلني ممن ألقى معاذيره، بل ممن ألقى قلبه بين يديك.  
ولا تجعلني ممن شهد للنور ثم اختار الظل.  
واجعل القرآن حجةً لي، لا حجةً عليّ.  
وهذا نصل إلى الخاتمة الأخيرة للكتيب:

على باب النور.

حيث لا يبقى الحديث عن الوليد وحده، ولا عن العربي الأول  
وحده، بل عنا نحن:

ماذا نفعل حين يبلغنا النور؟ هل ندخل؟

أم نقف على الباب، نمدح النور، ونبقى خارجه؟

## الخاتمة

### على باب النور

حين لا يكفي أن تمدح الطريق حتى تمشي فيه

ليست قصة الوليد بن المغيرة قصة رجلٍ مضى وانتهى.

لو كانت كذلك، لكانت خبرًا من أخبار السيرة، نقرؤه فنأسف، ثم

نطوي الصفحة ونمضي. لكنها أعمق من أن تُحبس في زمنها،

وأخطر من أن تبقى واقعةً تاريخيةً معزولة. إنها صورةٌ متكررة

للإنسان حين يقترب من الحق، ويعرف منه ما يكفي، ثم يقف عند

العتبة الأخيرة: عتبة التسليم.

هناك، على تلك العتبة، تنكشف حقيقة الإنسان.

فليس كل من بلغ الباب دخل.

وليس كل من رأى النور مشى إليه.

وليس كل من قال عن القرآن: ما أعظمه، صار من أهله.

وليس كل من عرف الطريق ملك شجاعة السير.

قد يقف الإنسان على باب النور طويلاً.

يمدح النور.

يصف جماله.

يتحدث عن صفائه.

يعترف أنه أعلى مما سواه.

ثم يبقى خارجاً. ثم يبقَى خارجاً. هذه من أذق صور الحرمان: أن يكون الإنسان قريباً من الحق

قرباً يزيد حسرته، لا قرباً ينجيهِ. أن يعرف من النور ما يجعله

مسؤولاً، ولا يدخل منه ما يجعله مطمئناً. أن يصير شاهداً على

الجمال، لا عبداً للحق.

لقد قال الوليد: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه

لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلَى عليه.

قال ما لو اتبعه لكان باباً إلى النجاة.

لكنه وقف عند القول.

رأى الثمرة، ولم يمد يده.

رأى الماء، ولم يشرب.

رأى العلو، ولم يصعد.

رأى النور، ولم يدخل.

وهنا ليست الفاجعة في أن القرآن لم يبلغه، بل في أنه بلغه فلم

يتبعه.

ليست في أن الدليل غاب، بل في أن النفس غلبت.

ليست في أن البيان قصر، بل في أن الكبر طال.

ليس السؤال: ماذا قال الوليد؟ بل ماذا نفعل نحن؟

من السهل أن نقف أمام الوليد موقف القاضي.

نقول: كيف عرف ثم كابر؟

كيف شهد ثم عاند؟

كيف وصف القرآن بهذا الجلال ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

يُؤْتَرُ﴾؟

لكن الانتفاع بالقصة لا يبدأ من إدانته، بل من الخوف أن يتكرر

معنا شيء من حركته النفسية.

فليست الوليدية دائماً أن يكفر الإنسان بالقرآن جحوداً صريحاً.

قد تكون في صورة أدق: أن يعرف الإنسان أمراً من أمر الله ثم

يؤجله.

أن يسمع الآية ثم يهرب منها إلى غيرها.

أن يدرك أن عليه توبةً ثم يقول: غداً.

أن يعرف أن في قلبه كبراً ثم يسميه عزة.

أن يعرف أن في موقفه ظلماً ثم يسميه حكمة.

أن يعرف أن القرآن يطالبه بتغيير، ثم يكتفي بأن يقول عنه كلاماً

وهنا يكون الخطر علينا نحن.  
جميلاً.

نحن الذين نؤمن أن القرآن كلام الله.

نحن الذين نعرف فضله، ونحفظ من آياته، ونشهد بعظمته.

نحن الذين نسمعه في الصلاة، ونقرؤه في المصاحف، ونستشهد به في الكلام.

السؤال ليس: هل نؤمن بعظمة القرآن؟

بل: هل سمحنا لعظمة القرآن أن تحكمنا؟

هل القرآن في حياتنا نورٌ يقود، أم نصٌّ نمذحه؟

هل هو مرجعٌ نرجع إليه، أم جمالٌ نتغنى به؟

هل هو حجةٌ نخشاها، أم مادةٌ نشرحها؟

هل إذا كشف فينا عيبًا انقدنا، أم بحثنا عن معاذيرنا؟

إن الخوف كل الخوف أن نكون قد ورثنا من المؤمنين اسم العلاقة

بالقرآن، وفقدنا حرارة الاستقبال. أن نسمعه كثيرًا حتى لا نعود

نرتجف. أن نتلوه حتى نعتاد صوته، ولا نسمح له أن يوقظ فينا ما

نام.

فالقرآن لا يشيخ.

لكن القلوب تشيخ إذا لم تتجدد بالتسليم.

## أَنْ لَا نَخُونُ لِحِظَةِ الصِّدْقِ

لكل إنسان لحظات صدق مع الله.

لحظات قصيرة، لكنها كاشفة.

يضعف فيها صوت التبشير.

وتسكت فيها ضوضاء الناس.

وتظهر النفس كما هي.

ويقول القلب في داخله: نعم، هذا حق.

هذه الآية لي.

هذا النداء يخصني.

هذا الطريق أعرفه.

هذه اللحظات من نفحات الله.  
وهذا العذر الذي أحتمي به ليس إلا ستاراً رقيقاً.

فمن صدق معها، فتحت له باباً.

ومن خانها، بقيت في داخله شاهداً حزيناً.

كان للوليد لحظة صدق.

لحظة قال فيها ذوقه ما لم يستطع كبرياؤه احتمالاه.

لحظة انكشف فيها القرآن لميزانه البياني.

لحظة عرف فيها أن هذا الكلام ليس من جنس الكلام الذي يعرفه.

لكن تلك اللحظة لم تجد قلبًا شجاعًا.

وجدت ذوقًا رفيعًا، ولم تجد نفسًا متواضعة.

وجدت عقلًا يميز، ولم تجد إرادةً تنقاد.

وجدت لسانًا يحسن الوصف، ولم تجد قلبًا يحسن التسليم.

وهذا ما ينبغي أن نخشاه:

أن تأتي لحظة الصدق، فنخونها بالتأجيل.

أن يكشف الله لنا موضع الداء، فننشغل بتجميل صورته.

أن يفتح لنا باب الرجوع، فنقول: ليس الآن.

أن يضعنا القرآن أمام أنفسنا، فنغضّ أبصارنا عن الداخل، ونذهب

نفتش عن عيوب الآخرين.

ما أكثر ما تضيع النجاة لا لأن الباب مغلق، بل لأن الإنسان لا يريد أن يدخل في اللحظة التي فُتِحَ له فيها الباب.

القرآن لا يطلب مدحًا فقط، بل استجابة

القرآن أعلى من مدائحنا.

لا تزيده شهادتنا جلالاً.

ولا يرفعه إعجابنا.

ولا يحتاج إلى ذوق الوليد، ولا إلى بيان البلغاء، ولا إلى عبارات

الكتاب.

هو كلام الله.

لكن نحن الذين نحتاج أن نشهد له لنتطهر، وأن نسمعه لنستقيم،

وأن نقرب منه لننجو.

ونحن الذين نخسر حين نمدحه ولا نتبعه، ونصفه ولا نحتكم إليه،

ونجعله في مقام الجمال لا في مقام السلطان.

إن القرآن لا يريد من الإنسان أن يقول فقط: ما أعظم هذا الكلام.

بل يريد منه أن يقول:

سمعنا وأطعنا.

لا يريد أن يكون لحظة إعجاب في القلب، بل يريد أن يكون طريقًا

للحياة.

لا يريد أن يسكن رفوف الذاكرة، بل أن يسكن مركز القرار.

لا يريد أن نقرأه كما نقرأ النصوص التي تعجبنا، بل كما يقرأ العبد

خطاب ربه.

فإذا قال القرآن: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾

فليس المطلوب أن نقول: ما أبلغ السؤال.

بل أن نتوقف فعلاً: إلى أين نذهب بعيداً عن الله؟

وإذا قال: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾

فليس المطلوب أن نعجب بدقة التعبير فقط، بل أن نكفّ عن إلقاء

المعاذير.

وَإِذَا قَالَ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

فليس المطلوب أن نحفظ العبارة، بل أن نصير من أهلها.

النور لا يُنتفع به من بعيد

من يرى النور من بعيد قد يعرف أنه نور، لكنه لا يستضيء به

حتى يقترب.

وهكذا القرآن.

قد يعرف الإنسان أنه حق، لكنه لا ينتفع بحقه ما دام واقفًا خارجه.

قد يعرف أنه هدى، لكنه لا يهتدي به حتى يجعله قائدًا.

قد يعرف أنه شفاء، لكنه لا يُشفى حتى يضع جرحه بين يديه.

قد يعرف أنه فرقان، لكنه لا يفرّق به حتى يقبل أن يحكم على أهوائه

ومعاذيره.

النور لا يطلب منك أن تصفه فقط.

يطلب منك أن تمشي فيه.

ولهذا كانت مأساة الوليد أنه وقف قريبًا جدًا، لكنه لم يدخل.

كان على باب النور، لكنه اختار أن يبقى في ظلّ نفسه.

لم يكن محجوبًا ببعد المسافة، بل بثقل الكبر.

لم يكن ينقصه أن يسمع أكثر، بل أن يتواضع أكثر.

وهذا يلخص كثيرًا من علاقة الإنسان بالحق.

ليست المسافة أحيانًا بين الإنسان والهداية مسافة معلومات، بل

مسافة خضوع.

ليست المشكلة أنه لا يعرف الطريق، بل أنه لا يريد أن يدفع ثمن

السير.

ليست العلة في غياب النور، بل في ألفة الظلام.  
آخر ما تكشفه القصة

تكشف لنا قصة الوليد أن الإنسان قد ينهزم أمام القرآن من الداخل،

ثم يكابر من الخارج.

قد يقول قلبه: نعم.

ويقول لسانه: لا.

قد يقول ذوقه: هذا يعلو.

وتقول مصلحته: اخفضه حتى لا يعلو عليك.

قد يقول عقله: هذا ليس من كلام البشر.

وتقول مكانته: لا تتبع، فإن الاتباع سيغيّر صورتك بين الناس.

وهذه الحرب الخفية هي ساحة الإنسان الحقيقية.

فليس كل الصراع في المناظرات والأسواق والمجالس.

الصراع الأعظم يقع في الداخل، في تلك اللحظة التي يعرف فيها

الإنسان ثم يختار:

هل يكون عبدًا للحق، أم عبدًا لصورة نفسه؟

وهنا تكون النجاة في كلمة واحدة:

**التسليم.**

التسليم لا بمعنى إلغاء العقل، بل بمعنى أن يبلغ العقل موضعه

الصحيح: أن يعرف الحق ثم يقود النفس إليه.

ولا بمعنى إطفاء الذوق، بل بمعنى أن يصير الذوق بابًا إلى

العبودية لا بديلاً عنها.

ولا بمعنى ضعف الإنسان، بل بمعنى قوته على أعظم خصومه:  
نفسه.

فأقوى الناس ليس من غلب خصمه في الجدل، بل من غلب  
كبره عند ظهور الحق.

وأرفع الناس ليس من أحسن وصف النور، بل من دخل فيه.  
وأصدق الناس ليس من قال أجمل العبارات عن القرآن، بل من  
جعله حكماً على قلبه.  
دعاء على العتبة

يا رب، لا تجعلنا ممن عرفوا فلم يتبعوا.

ولا ممن شهدوا للنور ثم اختاروا الظل.

ولا ممن قالوا عن كتابك كلاماً جميلاً، ثم لم يجعلوه حجةً على  
نفوسهم.

يا رب، إذا كشفت لنا آيةً عيباً، فلا تجعلنا نغضب من الكشف،

بل نرجع إليك.

وَإِذَا هَدَمْتَ فِينَا وَهْمًا، فَلَا تَجْعَلْنَا نَعِيدَ بِنَاءِهِ بِاسْمٍ آخَرَ.

وَإِذَا أَرَيْتَنَا كِبْرًا خَفِيًّا، فَلَا تَجْعَلْنَا نَحْمِيهِ بِالْمَعَاذِيرِ.

وَإِذَا فَتَحْتَ لَنَا بَابًا، فَلَا تَجْعَلْنَا نُؤْجِلُ الدَّخُولَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ لَنَا نُورًا لَا نَمْدَحُهُ مِنْ بَعِيدٍ، بَلْ نَمْشِي فِيهِ.

وَاجْعَلْهُ شِفَاءً لَا نَصْفَهُ بِأَلْسِنَتِنَا فَقَطْ، بَلْ نَضَعُ عَلَيْهِ أَمْرَاضَ قُلُوبِنَا.

وَاجْعَلْهُ فِرْقَانًا لَا نَفْرُقُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ وَحَدِّهِمْ، بَلْ نَفْرُقُ بِهِ دَاخِلَ أَنْفُسِنَا

بَيْنَ الصَّدَقِ وَالْوَهْمِ، وَبَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْكِبَرِ، وَبَيْنَ طَلَبِ الْحَقِّ وَطَلَبِ

الْغَلْبَةِ.

يَا رَبِّ، لَا تَجْعَلْنَا كَالَّذِي رَأَى الثَّمَرَةَ وَلَمْ يَمْدُ يَدَهُ.

وَلَا كَالَّذِي رَأَى الْمَاءَ وَلَمْ يَشْرَبْ.

وَلَا كَالَّذِي شَهِدَ بِالْعُلُوِّ ثُمَّ بَقِيَ فِي سَفْحِ نَفْسِهِ.

اجْعَلْنَا مِمَّنْ إِذَا سَمِعُوا أَطَاعُوا، وَإِذَا عَرَفُوا اتَّبَعُوا، وَإِذَا انْكَشَفَ

لَهُمُ الطَّرِيقُ سَارُوا، وَإِذَا دَعَاهُمُ الْقُرْآنُ لَمْ يَكْتَفُوا بِالْإِعْجَابِ، بَلْ قَالُوا

بِقُلُوبِهِمْ قَبْلَ أَلْسِنَتِهِمْ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

## الكلمة الأخيرة

لقد بدأنا من رجلٍ سمع القرآن، فقال ما قال.

لكننا لا نريد أن ننتهي عنده.

نريد أن ننتهي عند أنفسنا.

عند علاقتنا نحن بالقرآن.

عند تلك المسافة الدقيقة بين الإعجاب والاتباع.

بين المعرفة والطاعة.

بين أن نقول: القرآن عظيم، وأن نجعله عظيمًا في قراراتنا.

بين أن نصف النور، وأن ندخله.  
فالقرآن لا يزال يعلو وما يعلو عليه.

ولا يزال يحطم ما تحته.

لا يزال يحطم الأصنام، ظاهرةً وخفية.

يحطم صنم الحجر، وصنم الهوى.

صنم الجاه، وصنم الصورة.

صنم العادة، وصنم الخوف.

صنم الأنا حين تتضخم حتى لا ترى فوقها حقًا.

ولا يزال القرآن يمد يده للإنسان، لا ليدهشه فقط، بل لينقذه.

ولا يزال يسأل كل قارئٍ بلسان الحال:

هل ستكتفي بأن تقول: ما أجمل النور؟

أم ستدخل؟

وهنا يتحدد المصير.

فالوليد وقف على باب النور، ومدح النور، ثم بقي خارجه.

أما المؤمن الصادق، فإذا بلغ الباب لم يكتفِ بالوصف، بل خلع نعلي

كبريائه، ودخل.

وهذا هو الرجاء.

أن لا نكون ممن يعرفون الطريق ولا يمشون.

ولا ممن يسمعون النداء ولا يجيبون.

ولا ممن يشهدون للنور ثم يختارون العتمة.

بل أن نكون ممن إذا أشرق القرآن على قلوبهم، لم يقولوا فقط:  
ما أعظمه.

بل قالوا: يا رب، هذا نورك، ونحن عبيدك.  
فخذ بأيدينا من الإعجاب إلى الاتباع، ومن المعرفة إلى التسليم،  
ومن الوقوف على الباب إلى الدخول في رحمتك.  
تم بحمد الله.